الإمام الجليل

ابن قتيبة رحمه الله

وجهوده في السنة النبوية

بحث إعداد
د. عبد الله عبد العليم أبو العيون
الأستاذ المساعد بقسم الحديث وعلومه
كلية الدراسات الإسلامية والعربية
جامعة الأزهر

بسم الله الرحمن الرحيم

بسم الله الرحمن الرحيم

[اللهم يسر وأعن]

مقدمة :

الحمد لله رب العالمين ، اللهم صل على سيدنا محمد عبدك ورسولك النبى الأمي ، وعلى آله وصحبه وعلينا ، وسلم وبارك اللهم آمين .

وبعـــــد :

فإن خير ما يجتهد فيه المجتهدون ، وأنبل ما يتدارسه الدارسون ، وأعظم ما يقضى فيه الإنسان حياته له وبه ، وأشرف نسب ينتسب إليه المرء – بعد كتاب الله تعالى الكريم – السنة النبوية الشريفة ، بل هما صنوان عند أهل الإيمان بالله تعالى، قال عز وجل : ﴿ من يطع الرسول فقد أطاع الله ... ﴾ (١) ، ويأمر الله تعالى بطاعة رسوله صلى الله عليه وسلم ، كما يأمر بطاعته فيقول : ﴿ يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول ... ﴾ (٢) .

فالقرآن الكريم ، والسنة النبوية وحى متلو وغير متلو ، وهما منسكا لكل مؤمن ، كما قال تعالى : ﴿ لكل أمة جعلنا منسكا هم ناسكوه .. ﴾ (٣) . وأيضا هما سبيل الله تعالى كما قال عز وجل : ﴿ ويوم يعض الظالم على يديه يقول يا ليتنى اتخذت مع الرسول سبيلا ﴾ (٤) .

وقد حذر الله تعالى من مخالفة رسوله – صلى الله عليه وسلم – فقال تعالى : ﴿ فليحذر الذين يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنة أو يصيبهم عذاب أليم ﴾ (٥) .

---

(١) سورة النساء ﴿ ٨٠ ﴾ .
(٢) سورة النساء ﴿ ٥٩ ﴾ .
(٣) سورة الحج ﴿ ٦٧ ﴾ .
(٤) سورة الفرقان ﴿ ٢٧ ﴾ .
(٥) سورة النور ﴿ ٦٣ ﴾ .

هذا : وقد هيىء الله تعالى لأحاديث رسول – صلى الله عليه وسلم – علماء أجلاء يحفظونها ، ويبلغونها ، وينفون عنها تحريف الغالين ، وانتحال المبطلين ، ويدعون إليها العاملين ، قال تعالى : ﴿ وقال الذين أوتوا العلم ويلكم ثواب الله خير لمن آمن وعمل صالحا ولا يلقاها إلا الصابرون ﴾ (١) .

ولما كانت جهود هؤلاء العلماء مناط احترام ، وإجلال لهم ، وأصبحت منارا لكل باحث فى علم السنة النبوية ، والعاملين بها ، فهم بذلك خير قدوة يقتدى بها فى فهم الحديث النبوى ، وتدبره ، والإلتزام به .

أضف إلى ذلك أنهم من خلال هذه الجهود المشكورة ، قد وضعوا مناهج ينبغى على كل طالب علم أن يعلمها ، ويقف عليها ، ويقتدى بها ، ويداوم بذل الجهد من خلالها حتى يستمر – بعون الله تعالى – الحفاظ على سنة النبى – صلى الله عليه وسلم – ، التى هى شرع من الله تعالى ، ودين ، وتبقى أمة سيدنا محمد – صلى الله عليه وسلم – خير أمة أخرجت للناس .

ومن هذا المنطلق استعنت الله تعالى على ابراز جهود عالم من العلماء الأفاضل ، للاستقاء من معين علمه ، والقطاف من ثمار غرسه ، فقد كان له دوره الطيب فى حقل السنة النبوية المطهرة ، وأثره الذى كتب الله تعالى له البقاء لأكثر من أحد عشر قرنا ألا وهو العالم الجليل (ابن قتيبة الدينورى) رحمه الله تعالى ، لاسيما وقد قضى حياته مجاهدا فى خدمة الإسلام ، والذود عن حياض السنة وما وجه إليها من طعون الطاغين ، وما وجه إلى أهلها من أفظع الشتائم ، وأبشع الصفات ، فكان – رحمه الله – لسان أهل السنة وحامل لواء الحوار والجدل فى عصره ، والمنافحة عنهم .

هذا : وإن كانت جهوده – رحمه الله – لم تتوقف عند خدمة حديث رسول

---

(١) سورة القصص ﴿ ٨٠ ﴾ .

الله – صلى الله عليه وسلم – ، فقد ضرب بسهم وافر فى الفقه ، واللغة ، والأدب وغير ذلك ، بم يخدم شرع الله تعالى ودينه فى نهاية المطاف .

فاللغة – على جهة المثال – التى حظيت بشطر وافر من جهوده ركن أساسى فى فهم الشريعة الإسلامية ، أصولها وقواعدها ، وأسسها ، ومنهجها ، فكم تعرضت لهجمات شرسة فى العصور المتأخرة ، حتى تمكن أعداء الإسلام والمسلمين من محو هذه اللغة فى بعض البلدان الإسلامية ردحا من الزمن ، وما زالت هذه البلدان فى عصرنا تعانى العودة إلى اللغة العربية الأم ، بعد انحسار الاستعمار عنها .

لهذا نجد أن جهد المتقدمين – ومنهم العلامة ابن قتيبة الدينورى – التى ما زالت مستمرة بين أيدى المسلمين اليوم ، تقوم بدور فعال فى حفظ شرع الله تعالى ودينه الذى نزل على محمد النبى الأمى العربى – صلى الله عليه وسلم – ، فرحم الله تعالى علمائنا الأجلاء ، وأعاننا على حفظ جهودهم والانتفاع بها فى الدين والدنيا والآخرة .

وبجهد المقل قسمت هذا البحث إلى خمسة مباحث :

المبحث الأول : فى التعريف بابن قتيبة رحمه الله تعالى .

المبحث الثانى : فى بيان جهوده رحمه الله تعالى من خلال كتاب (تأويل مختلف الحديث) .

المبحث الثالث : بيان جهوده رحمه الله تعالى من خلال كتاب (غريب الحديث) .

المبحث الرابع : بيان جهوده رحمه الله تعالى من خلال كتاب (الأنواء) .

المبحث الخامس : بيان جهوده رحمه الله تعالى من خلال كتاب (المعارف) ثم الخاتمة .

﴿٢٨﴾

والحق أن هذه الكتب ما هى إلا أمثلة دالة على جهود هذا العالم الجليل وإلا فإن جل مؤلفاته ، إن لم يكن جميعها ، لا يترك فرصة سانحة أو مناسبة ليستشهد فيها بالحديث النبوى ، وبيان دلائله ومعناه ، إلا فعل ، فرأيت فى ذلك الكفاية – إن شاء الله تعالى – فى الدلالة على المراد ، والبعد عن الاستطراد المخل بالمقصود، وسبحان من جعل فوق كل ذى علم عليم – وهو حسبى ونعم الوكيل .

وصل اللهم على سيدنا ومولانا محمد وعلى اله وصحبه وسلم .

دكتور
عبد الله عبد العليم أبو العيون
الأستاذ المساعد فى الحديث وعلومه

المبحث الأول
التعريف بابن قتيبة

* اسمه ونسبه :

هو : عبد الله بن مسلم بن قتيبة أبو محمد الدينورى قاضيها ، النحوى اللغوى، صاحب المصنفات البديعة المفيدة المحتوية على علوم جمة نافعة . هكذا نسبه ابن كثير ، كما ذكر أنه ولد فى سنة مائتين وثلاثة عشر (٢١٣هـ) [١] وذلك فى أواخر خلافة المأمون .

وهو ينسب إلى أسرة فارسية ، فوالده كان فارسيا من « مروالروز » [٢] ، فالخطيب البغدادى يقول بعد ذكر اسمه « أبو محمد الكاتب الدينورى – وقيل المروزى [٣] – .

واختلفت المصادر فى البلد الذى ولد فيه ، فقال السمعانى ، والقفطى ، أنه ولد ببغداد ونشأ بها ، وتثقف على أهلها ، وأخذ العلم من رجالها ، وكذلك ذكر خير الدين الزركلى لكنه قال : أنه ولد ببغداد وسكن الكوفة .

ويرى ابن الأنبارى وابن الأثير وابن النديم : إنه ولد بالكوفة ، ولكنهم متفقون على أنه نشأ ببغداد [٤] .

أما نسبته إلى الدينور فكما تذكر المصادر أنه ولى قضاء الدينور مدة فنسب إليها .

وفى ذلك دلالة واضحة على اهتمام العلماء ببذل الجهد فى تحقيق تواريخ

(١) « البداية والنهاية » جـ١١ ص٤٨ .
(٢) « الفهرست لابن النديم » ص بتصرف .
(٣) تاريخ بغداد جـ١٠ ص١٧٠ ترجمة رقم (٥٣٠٩) .
(٤) راجع (الأعلام) جـ٤ ص١٣٧ / مقدمة (مختصر عيون الأخبار) ص٦ .

الرواة والعلماء المبرزين فى مجالات العلوم وخاصة الحديث النبوى الشريف ، لما يحتاج إليه من دقة فى الرواية ، وبحث فى الراوى والمروى ، وما يترتب على ذلك من الحكم على الحديث بالقبول أو الرد ، وبالتالى تأسيس الأحكام على أدلة صحيحة لا يتطرق إليها الخطأ .

* شيوخه :

تلقى القاضى ابن قتيبة الدينورى رحمه الله تعالى علمه من أعلام عصره فى الحديث ، واللغة ، والأدب وغيرها منهم :

اسحاق بن راهويه وهو من أبرز شيوخ الإمام محمد بن اسماعيل البخارى وطبقته ، وأبو حاتم السجستانى وذويه ، ومحمد بن زياد الزيادى ، وأبى الخطاب زياد بن يحيى الحسانى ، ووالده مسلم بن قتيبة ، وأحمد بن سعيد اللحيانى ، ومحمد بن سلام الجمحى ، وحرملة بن يحيى التيجيبى ، والقاضى يحيى بن أكثم، وغيرهم كثير .(١)

ويلاحظ أنه شارك أئمة الحديث فى شيوخهم كالشيخين وأصحاب كتب السنن ، مما يشير إلى حصيلة حديثية عظيمة ، كانت ذخيرته فى القضاء ، وفى الدفاع عن أهل السنة والحديث النبوى الشريف .

* تلاميذه :

ولما كان ابن قتيبة قد اشتغل بالتدريس زمنا لذا فإننا نجد أن تلاميذه كانوا كثيرين ، ومن أشهرهم ابنه أحمد الذى ذكر الذهبى أنه : كان يحفظ تصانيف أبيه، وتولى القضاء بمصر .(٢)

أما الخطيب البغدادى فذكر من تلاميذه طائفة حيث قال : روى عنه

(١) راجع (البداية والنهاية) جـ١١ ص٤٨ / تاريخ بغداد جـ١٠ ص١٧٠ / والإعلام جـ٤ ص١٣٧ / مقدمة (مختصر عيون الأخبار) ص٦ .
(٢) تذكرة الحفاظ للذهبى جـ٣ ص٨١٦ بتصرف .

ابنه أحمد ، وعبيد بن عبد الرحمن السكرى ، وإبراهيم بن محمد بن أيوب الصائغ ، وعبيد الله بن أحمد بن بكير التميمى ، وعبد الله بن جعفر بن درستويه الفارسى .[١]

وأما الأستاذ السيد أحمد صقر فقد ذكر فى مقدمة كتاب « تأويل مشكل القرآن » لابن قتيبة أربعة عشر تلميذا له من أشهر العلماء الذين قرءوا عليه تصانيفه كلها أو بعضها ، وكان لهم فضل نشرها فى الآفاق ، والإستفادة منها .[٢]

ويضيف ابن كثير إلى تلاميذه : محمد بن أسحاق بن جعفر الصفار ، ومحمد بن أسلم بن وارة ، ومصعب بن أحمد أبو أحمد الصوفى كان من أقران الجنيد [٣] وكان لجهد تلاميذه فى نشر علمه أثر كبير فى بقاء مصنفاته طيلة هذه الأزمان وكما قال الشاعر :

والمرء ما عاش ممدود له أثر ∴ لا ينقضى العمر حتى ينقضى الأثر

والحق أن أثره ما زال بفضل الله تعالى وجهة تلاميذه ذخيرة لطلاب العلم فى مجالات متعددة .

* مكانته العلمية ودرجته الحديثية :

أما عن مكانته العلمية فإنه قد شهد له الكثير من العلماء بعلو مكانته وطول باعه فى العلم ، فإن ابن كثير يصفه بأنه « النحوى اللغوى ، صاحب المصنفات البديعة المفيدة المحتوية على علوم جمة نافعة ، وصنف وجمع وألف المؤلفات الكثيرة » . [٤] وكذا يرى الخطيب البغدادى بأنه صاحب التصانيف المشهورة ، والكتب المعروفة .[٥]

---

(١) تاريخ بغداد جـ١٠ ص١٧٠ .
(٢) راجع « مقدمة تأويل مشكل القرآن » .
(٣) « البداية والنهاية » جـ١١ ص٤٨ .
(٤) المرجع السابق جـ١١ ص٤٨ .
(٥) المرجع السابق جـ١١ ص٤٨ .

وهذه المصنفات التى أشار إليها العلماء يلاحظ أنها فى فنون متعددة ، فكما كان له قدم فى الحديث النبوى الشريف بما ألف فيه ، فقد ضرب بسهم وافر فى الأدب ، فألف فى أكثر فنونه ، وتعد مصنفاته الأدبية أمهات الكتب المفيدة إلى عصرنا هذا ، فما من أديب ولا ناقد فى الأدب – غالبا – إلا وتعتبر مصنفات ابن قتيبة أحد روافد علمه .

ولا شك أن جهده اللغوى أيضا فى مثل (غريب الحديث) و(غريب القرآن) الكريم ، دال على حصيلة لغوية وافرة ، وسعة علم ، فكما هو معلوم أن اللغة هى إحدى أهم الأدوات المفسرة لكتاب الله تعالى ، وشرح أحاديث النبى – صلى الله عليه وسلم – .

أضف إلى ذلك كتابه القيم فى (تأويل مختلف الحديث) وما فيه من علم جم غزير ، يقتضيه مقصده وغايته فى الرد على المعتزلة ، وأصحاب الكلام ، مما تناولوا فيه السنة وأهلها بالطعن ، إلى آخر ذلك مما نراه – إن شاء الله تعالى – فى العرض لهذا الكتاب .

ومختصر القول : أن تصانيف ابن قتيبة رحمه الله تعالى تدل على أنه كان دائرة للمعارف ، تجعله فى موضع متقدم مع أهل الصدارة من العلماء المبرزين فى عصره ، فهو فقيه فى الدين ، بصير بالتأويل ، وإدراك معانى القرآن الكريم والسنة النبوية ، واتباعا لها ، وقوة الحجة التى خاض بها لجة الرد على الخصوم المخالفين .

هذا : وإن كان خصومه قد تناولوه بالنقد والتجريح ، فهذا أمر وارد بالنسبة لمن كان فى منزلته ، ولكنه خرج من كل ذلك – بإذن الله تعالى – سالما فى عقيدته ، وآراءه العلمية ، وما يرويه من آثار ، وهذه الآثار شاهد عيان بتمكنه فى إيمانه ، وعلمه وحجته .[1]

(١) راجع تقديم الأستاذ / أحمد البردونى لكتاب (عيون الأخبار) ص٧ .

جاء فى مقدمة (تأويل مختلف الحديث) ، وكان له – أى ابن قتيبة – من حسن الدفاع عن الحديث والقرآن ضد النزعات الفلسفية ، ما جعل فريقا من الناس يعتبرونه لسان أهل السنة ، وحامل لواء الحوار والجدل والمنافحة عنهم ، .[١]

* أما درجته الحديثية :

فيقول عنه الخطيب البغدادى : وكان ثقة دينا فاضلا .[٢]

ويقول ابن خلكان : كان فاضلا ثقة .[٣] وجاء فى (تذكرة الحفاظ) : ابن قتيبة من أوعية العلم ، ولكنه قليل العلم فى الحديث فلم أذكره .[٤]

ووصفه أبو يعلى بقوله : (عالم جامع مشهور بالنحو واللغة وله فى الحديث محل) .[٥]

ونقل الذهبى فى « السير » توثيق أبو بكر الخطيب له المتقدم .[٦]

ومن هذه الأقوال نرى أن ابن قتيبة الدينورى رحمه الله تعالى أنه من الثقات وأهل العلم والدين والفضل .

* مؤلفاته :

تذكر المراجع العامة والخاصة أن ابن قتيبة الدينورى كان غزير العلم ، ثرى المعرفة ، طويل الباع فيهما ، فلا عجب أن كثرت مصنفاته ، وتنوعت ، وقد اتفقت هذه المراجع على بعض هذه المؤلفات ، وذكرت بعض المراجع ما لم تذكره الأخرى كالخطيب البغدادى ، وابن كثير ، وابن خلكان ، وغيرهم .

---

(١) المقدمة ص٦ .
(٢) انظر : تاريخ بغداد جـ١٠ ص١٧٠ رقم (٥٣٠٩) .
(٣) انظر وفيات الأعيان جـ٣ ص٤٢ – ٤٤ .
(٤) انظر جـ٢ ص٦٣٣ .
(٥) انظر : الارشاد جـ٢ ص٦٢٦ .
(٦) انظر : سير الأعلام النبلاء جـ١٢ ص٢٩٧ .

وجاء فى مقدمة (مختصر عيون الأخبار) : « لابن قتيبة مؤلفات كثيرة ، تفوق الستين مصنفا ، فيما ذهب إليه النووى ، أو زهاء ثلثمائة مصنف ، فيما نقله ابن تيمية عن صاحب كتاب (التحديث بمناقب أهل الحديث) .

وفيما يلى أذكر طائفة من هذه المصنفات :

١ – كتاب الوزراء .

٢ – كتاب آلة الكتاب .

٣ – كتاب صناعة الكتابة .

٤ – كتاب الألفاظ المغربة .

٥ – كتاب الوحش .

٦ – كتاب الصيام .

٧ – غريب الحديث .

٨ – إصلاح الغلط فى غريب الحديث لأبى عبيد .

٩ – تفسير غريب القرآن .

١٠ – الأنواء .

١١ – فضل العرب والتنبيه على علومها .

١٢ – الميسر والقداح .

١٣ – المعارف .

١٤ – عيون الأخبار .

١٥ – أدب الكاتب .

١٦ – الشعر والشعراء .

١٧ – المسائل والأجوبة فى الحديث واللغة .

١٨ – الاختلاف فى اللفظ والرد على الجهمية والمشبهة .

١٩ – تأويل مشكل الحديث .

٢٠ – الأشربة .

٢١ – المعانى الكبير .

٢٢ – عيون الشعر .

٢٣ – التقفية .

٢٤ – العلم .

٢٥ – جامع النحو الكبير .

٢٦ – جامع النحو الصغير .

٢٧ – الخيل .

٢٨ – الحكاية والمحكى .

٢٩ – إعراب القرآن .
٣٠ – ديوان الكتاب .
٣١ – فرائد الدّر .
٣٢ – خلق الإنسان .
٣٣ – القراءات .
٣٤ – دلائل النبوة .
٣٥ – جامع الفقه .
٣٦ – حكم الأمثال .
٣٧ – أدب العشرة .
٣٨ – التفسير .
٣٩ – معجزات النبى ﷺ .
٤٠ – تأويل الرؤيا .
٤١ – استماع الغناء بالألحان .
٤٢ – الرد على القائل بخلق القرآن .
٤٣ – آداب القراءة .
٤٤ – الجوابات الحاضرة .
٤٥ – تأويل مشكل القرآن .
٤٦ – الجراثيم .
٤٧ – معانى القرآن .

هذه طائفة مما ذكرها العلماء منسوبة لابن قتيبة رحمه الله تعالى ، وقد ذكرتها للنظر فيها وبيان أنه لم يختص بجانب واحد من العلوم ، بل لسعة علمه وغزارته ، وقوة عزيمته كتب فى الكثير منها ، كما أنها تنبئ عن جهد عال ، قد بذله صاحبها عن قناعة ، وطيب خاطر رحمه الله تعالى .

* وفاته :

اختلفت الأقوال فى وفاة القاضى ابن قتيبة الدينورى رحمه الله تعالى ، فأورد ابن خلكان عدة أقوال ، وهى : أنه توفى فى ذى القعدة سنة سبعين ، وقيل سنة إحدى وسبعين ، وقيل : أول ليلة فى رجب ، وقيل : منتصف رجب سنة ستة وسبعين ومائتين ، والأخير أصح الأقوال .[1]

(١) انظر وفيات الأعيان جـ٣ ص٤٤ .

﴿٣٦﴾

وقال الخطيب البغدادى : قرأت على الحسن بن أبى بكر عن أحمد بن كامل القاضى قال : ومات عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينورى فى ذى القعدة سنة سبعين ومائتين .

وقال : أخبرنا محمد بن عبد الواحد حدثنا محمد بن العباس قال : قرئ على ابن المنادى – وأنا أسمع – قال : ومات عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينورى صاحب التصانيف فجأة ، صاح صيحة سمعت من بعد ، ثم أغمى عليه ومات .

قال ابن المنادى : ثم إن أبا القاسم إبراهيم بن محمد بن أيوب بن بشير الصائغ ، أخبرنى أن ابن قتيبة أكل هريسة فأصاب حرارة ، ثم صاح صيحة شديدة ، ثم أغمى عليه ، إلى وقت صلاة الظهر ، ثم اضطرب ساعة ، ثم هدأ ، فما زال يتشهد إلى وقت السحر ، ثم مات أول ليلة من رجب سنة ست وسبعين .(١)

والذى رجحه ابن خلكان بعد ذكر أقوال العلماء هو ما تؤيده رواية ابن الصائغ التى جاء بها الخطيب البغدادى مُسْنَدة ، وبها أخذ كثير من العلماء المعاصرين عند الترجمة له – رحمه الله تعالى – فيترجح صحتها على غيرها من الأقوال ، والله أعلم .

(١) انظر تاريخ بغداد جـ١٠ ص١٧٠ .

﴿٣٧﴾

المبحث الثانى
جهود ابن قتيبة
فى تأويل مختلف الحديث

* تمهيد :

معرفة تأويل مختلف الحديث يقصد به - كما يرى الدووى - ، أن يأتى حديثان متضادان فى المعنى ظاهرا ، فيُوَفق بينهما ، أو يرَجِّح أحدهما . ويقدم لهذا التعريف بأن ، معرفة مختلف الحديث وحكمه ، فن من أهم الأنواع ، ويضطر إلى معرفته جميع العلماء من الطوائف ، وإنما يَكْمُلُ [١] له الأئمة الجامعون بين الحديث ، والفقه ، والأصوليون الغواصون على المعانى .

وصنف فيه الإمام الشافعى ولم يقصد رحمه الله استيفاءَهُ ، بل ذكر جملة ينبه بها على طريقه ، ثم صنف فيه ابن قتيبة ، فأتى بأشياء حسنة ، وأشياء غير حسنة يكون غيرها أقوى وأولى .[٢]

ثم يضيف السيوطى فى شرحه : ثم صنف فى ذلك ابن جرير ، والطحاوى كتابه (مشكل الآثار) ، وكان ابن خزيمة من أحسن الناس كلاما فيه ، حتى قال : لا أعرف حديثين متضادين ، فمن كان عنده فليأتنى به لأؤلف بينهما .[٣]

وقد كتب أيضا فى ذلك الخطيب البغدادى بابا فى نهاية كتابه (الكفاية) كان ختاما لهذا الكتاب .[٤] وكتب فيه طاهر بن صالح الجزائرى ، فى كتابه (توجيه

---

(١) يكْمُل : يقال : كمُلَ كمالا : ثبتت فيه صفات الكمال . المعجم الوسيط جـ٢ ص٨٠٤.
(٢) انظر : متن (تدريب الراوى) جـ٢ ص١٩٦ بتصرف . وقد أشار الدووى إلى أنه أتى بأشياء غير حسنة لكنه لم يضرب مثالا على ذلك .
(٣) انظر : (تدريب الراوى) جـ٢ ص١٩٦ .
(٤) انظر (الكفاية فى علم الرواية) ص٤٣٣ -٤٣٧ . ط دار ومكتبة الهلال .

النظر إلى أصول الأثر) ، فوائد تتعلق بمبحث التعارض والترجيح .[١] وقد تعرض لهذا النوع من علوم الحديث طائفة كثيرة من العلماء ، وأطالوا القول فيها لما له من أهمية ، ووصل بعضهم فى إزالة التعارض بين الأحاديث إلى أكثر من مائة طريقة من المرجحات ، وطرق الجمع بين ما ظاهره التناقض ، ويشير السيوطى إلى أن العراقى فى كتابه (النكت) قد استوفى ذلك .[٢]

إذن فلا شك فى أهمية هذا العلم ، وضرورة معرفته لأهل العلم والافتاء فى كل عصر .

* كتاب (تأويل مختلف الحديث) :

يعد هذا الكتاب من أهم ما كتب العلامة الفاضل أبو محمد بن قتيبة الدينورى فى مجال الحديث النبوى خاصة ، وإن كان له باع كبير فى المعارف الأدبية واللغوية ، والتى ظهر أثر الأخير منهما فى كتابه القيم (غريب الحديث) . فكتابى (تأويل مختلف الحديث) و(غريب الحديث) - وغيرهما - يظهران بوضوح جهود العالم ابن قتيبة فى مجال الحديث النبوى الشريف ، بل هما شاهدى عدل يثبتان ، ويؤكدان صحة هذه الجهود فى السنة النبوية ، والدفاع عن أهلها .

جاء عن ابن كثير فى كتاب (اختصار علوم الحديث) تحت النوع السادس والثلاثون (معرفة علوم الحديث) قوله (وقد صنف الشافعى فصلا طويلا من كتاب (الأم) نحوا من مجلد ، وكذلك ابن قتيبة له فيه مجلد مفيد ، وفيه ما هو غث ، وذلك بحسب ما عنده من العلم .[٣]

وقد علق على هذا العلامة أحمد شاكر بقوله : كتاب ابن قتيبة طبع فى مصر

---

(١) انظر الكتاب المذكور من ص٢٢٦ - ٢٣٧ . ط دار المعرفة بيروت - لبنان .
(٢) انظر تدريب الراوى جـ٢ ص١٩٨ - ٢٠٣ .
(٣) انظر (اختصار علوم الحديث) ص١٦٩ .

عام ١٣٢٦هـ باسم (تأويل مختلف الحديث) وقد أنصفه الحافظ ابن كثير ، وكذلك أنصفه ابن الصلاح ، فقال نحو ذلك فى (ص٢٤٤) قال : « وكتاب (مختلف الحديث) لابن قتيبة فى هذا المعنى ، إن يكم قد أحسن من وجه فقد أساء فى أشياء منه ، قصر باعه فيها ، وأتى بما غيره أول وأقوى » .[١]

وقال بدر الدين بن جماعة (... ثم صنف فيه ابن قتيبة ، وأحسن فى بعض) .[٢]

هذا : وإن كان الإمام النووى وابن كثير ، وابن الصلاح وابن جماعة قد أخذوا عليه شيئا من التقصير ، فلا يغض ذلك من قيمته وفائدته ، فلكل وجة نظر ، وأعمال الفكر لا تتوقف عند حد ، وقد أقر الجميع بأنه رحمه الله تعالى قد أحسن ، وأن كتابه مفيد . وسبحان من جعل فوق كل ذى علم عليم .

* أسانيد كتاب (تأويل مختلف الحديث) :

جاء فى صحيفة عنوان الكتاب ، طبعة (دار الكتب العلمية) بيروت – لبنان أن هذه النسخة قوبلت على ثلاث نسخ خطية :

الأولى : دمشقية بخط العلامة جمال الدين القاسمى .

الثانية : بغدادية قرأها ، وصححها العلامة فخر العراق محمود شكرى الألوسى .

الثالثة : مصرية فى المكتبة الخديوية ، بخط السيد الفاضل محمد خلوصى[٣] ، حافظ الكتب بمكتبة راغب باشا .

---

(١) المرجع السابق : هامش المتن ص١٦٩ .
(٢) انظر (المنهل الروى) لابن جماعة جـ١ ص٦٠ .
(٣) انظر صحيفة عنوان الكتاب .

﴿٤٠﴾

كما جاء فى مقدمة الكتاب تحت عنوان (أسانيد الكتاب وسماعاته) :

يقول مصححه الأول رحمه الله تعالى : لِيُعْلَمَ أنا عثرنا لهذا الكتاب على أربعة نسخ إلى المؤلف أبى محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة رحمه الله تعالى ، وأناله قربه ، إلا أن رابعها لم يكن سالما من التحريف ، والسقط ، كما أخبر كاتبه عن نفسه أنه لم يكن من كتابه على ثقة ، لاندراس بعض الكلمات من أكل العُث ، وإغفال بعضها من النقط . فلما لم يفدنا ثلج الصدور ... اكتفينا بإثبات الثلاثة التى اعتمدناها وأعرضنا عن الرابع لما علمت ، ولاسيما أنه ليس من أصل الكتاب ، فلا يهم إسقاطه ، والغرض من السند تصحيح نسبة الكتاب إلى مؤلفه ونسبة هذا الكتاب إلى ابن قتيبة مما لا شك فيه ، كيف وقد أثبت له كثير من الأئمة ، ومنهم العسقلانى فى شرح النخبة كتابا فى مختلف الحديث ؟!!

ونقل عنه الإمام أبى الفرج ابن الجوزى ، والإمام ابن فورك ، كل فى مؤلفه، فى موضوع الكتاب ، وعبارات هى بعينها موجودة فيه .

وها هى الأسانيد الثلاثة :

نص الأول :

أخبرنا الشيخ أبو الحسن على بن صالح بن ميمون العسقلانى ، بمدينة عسقلان فى جمادى الأول ، فى سنة ثلاثين وأربعمائة قال : أخبرنا أبو عبد الله ، عبيد الله بن محمد العكبرى ، المعروف بـ « ابن بطة » قال : حدثنا أبو بكر أحمد بن محمد بن الحسن الدينورى قال : قرأت على أبى عبد الله بن مسلم بن قتيبة ، فأقول : قال « أما بعد : أسعدك الله الخ .

نص الثانى :

أخبرنا بجمعه الشيخ الإمام أبو الحسن على بن إبراهيم البغدادى النحاس ،

﴿٤١﴾

قال : حدثنا الشيخ الإمام الحافظ أبو بكر ، محمد بن على بن ثابت البغدادى رضى الله عنه ، فيما كتب لى به فى إجازة قال : أخبرنا أبو على بن الحسن بن شهاب العكبرى بقراءتى عليه ، قال : أخبرنا أبو عبد الله ، عبيد الله بن محمد شيخ همدان الفقيه ، قال : حدثنا أبو بكر ، أحمد بن حسين بن إبراهيم الدينورى ، بالدينور قال: قال أبو محمد ، عبد الله بن مسلم بن قتيبة : (الحمد لله رب العالمين ، والعاقبة للمتقين ، وصل الله على محمد وآله الطيبين الطاهرين ، أما بعد ، أسعد الله الخ) .

نص الثالث :

جاء فى فهرست ما رواه عن شيخوخه من الدواوين المصنفة فى ضروب العلم وأنواع المعارف الفقيه المقرى المحدث : أبو بكر محمد بن خير الأشبيلى مما يتعلق بهذا الكتاب ، ما نصه :

« كتاب مختلف الحديث ، المدعى عليه التناقض ، تأليف ابن قتيبة حدثنى به الشيخ أبو جعفر أحمد بن محمد بن عبد العزيز ، عن أبى على ، حسين بن محمد الغسانى ، قال : أخبرنى به أبو العاصى ، حكم بن محمد الخدامى ، عن أبى إسحاق إبراهيم بن على بن محمد بن غالب التمار ، عن أحمد بن مروان المالكى ، عن أبى محمد بن قتيبة . قال أبو على : حدثنى به أيضا حكم بن محمد ، عن أبى عبد الله ، محمد بن أحمد بن عبد الوشاحى ، عن عبد الواحد بن أحمد بن عبد الله بن مسلم ابن قتيبة عن أبيه عن جده .[1]

مما سبق يتضح أن هذا الجهد الطيب لابن قتيبة لا لغيره ، وذلك بالإسناد المتصل إليه وذِكْر العلماء لهذا الكتاب فى مؤلفاتهم منسوبا إليه رحمه الله تعالى .

(١) انظر مقدمة المرجع السابق ص٩ ، ١٠ بتصرف .

﴿٤٢﴾

*** سبب تأليف هذا الكتاب :**

ولد ابن قتيبة وشب كما عرفنا سلفا فى العصر العباسى ، وكانت الدولة فى أوج قوتها وازدهارها ، أما مسائل الدين والكلام لم يكن أهلها على وفاق فقد كان الصراع متحد ما بينهم ، خاصة المعتزلة وأهل السنة ، حيث قام المعتزلة بحملة شعواء ضد أهل السنة ، ويجدون دعما على ذلك من الخليفة المأمون . إضافة إلى ذلك ما كان من المرجئة والقدرية والروافض وغيرهم من خلافات . واستمر الخلاف بين المعتزلة وأهل السنة إلى عهد الخليفة المتوكل ، الذى منع نصرة المعتزلة ، وأمر بالعودة إلى السنة النبوية واتباعها وترك ما عداها . ويظهر أن كتاب (تأويل مختلف الحديث) هذا ، قد وضعه الإمام ابن قتيبة بناء على طلب بعض أهل عصره حيث يقول :

(الحمد لله رب العالمين ، والعاقبة للمتقين ، وصل وسلم على محمد خاتم النبيين وآله الطيبين الطاهرين .

أما بعد ... أسعدك الله بطاعته ، وحاطك بكلاءته ، ووفقك إلى الحق برحمته وجعلك من أهله ، فإنك كتبت إلىّ تعلمنى ما وقفت عليه من ثلب أهل الكلام أهل الحديث ، وامتهانهم ، وإسهابهم فى الكتب بذمهم ، ورميهم بحمل الكذب ، ورواية المتناقض حتى وقع الخلاف وكثرت النحل – وتقطعت العِصَم – وتعادى المسلمون وأكفر بعضهم بعضا وتعلق كل فريق منهم لمذهبه بجنس من الحديث ...) .[1]

ويبدو أن تلك الرسالة صادفت ألماً دفينا فى صدر ابن قتيبة رحمه الله تعالى وشعورا بالأسى والشفقة ، لما عليه أهل الدين من تشعب فى الآراء ، فتوهجت أشجانه ، وسالت قريحته بما ضمه هذا الكتاب بين دفتيه راجيا الله تعالى ، أن

(١) انظر (تأويل مختلف الحديث) ص١١ .

تكون كلماته هادية إلى السبيل القويم ، رادعة لأهل الضلال ، ناصرة لأهل الحق والخير .

ثم يذكر رحمه الله تعالى ، ما ورد فى هذا المكتوب إليه من شبهات مما احتجت به هذه الفرق ، وأخذته اعتقادا لها فى الدين ، أو طعنا فى بعض الصحابة رضوان الله تعالى عليهم ، أو رواة الحديث النبوى ، ومن أمثلة ، ما أورده ، فى مقدمة كتابه مما جاء فى الرسالة عن هذه الفرق الآتى :

- أن الخوارج تحتج براويتهم « ضعوا سيوفكم على عواتقكم ، ثم أبيدوا خضراءهم » .

والقاعد يحتج بروايتهم « عليكم بالجماعة ، فإن يد الله عز وجل عليها » .

والمرجئ يحتج بروايتهم « من قال لا إله إلا الله ، فهو فى الجنة ، قيل : وإن زنى وإن سرق ؟ قال : وإن زنى وإن سرق » .

والمخالف له يحتج براويتهم : (لايزنى الزانى حين يزنى وهو مؤمن ، ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن) .

والقدرى يحتج براويتهم : « كل مولود يولد على الفطرة حتى يكون أبواه يهوّدانه أو ينصرانه » .

والمفوض يحتج براويتهم (اعملوا ، فكل ميسر لما خلق له ، أما من كان من أهل السعادة ، فهو يعمل للسعادة ، ومن كان من أهل الشقاء فيعمل للشقاء) .

والرافضة تتعلق فى إكفارها صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم بروايتهم « ليردن علىّ الحوض أقوام ثم ليختلجن دونى فأقول : أى ربى أصيحابى أصيحابى ، فيقول : إنك لا تدرى ما أحدثوا بعدك ، إنهم لم يزالوا مرتدين على أعقابهم منذ فارقتهم .

﴿٤٤﴾

ويحتجون فى تقديم علىّ رضى الله عنه براويتهم « أنت منى بمنزلة هارون من موسى غير أنه لا نبى بعدى » .

ومخالفوهم يحتجون فى تقديم الشيخين رضى الله عنهما براويتهم « اقتدوا باللذين من بعدى (أبو بكر وعمر) » .

ويذكر بعد ذلك حجة مفضلوا الغنى ، وحجة مفضلوا الفقر ، والقائلون بالبراء فيقول : هذا مع روايات كثيرة فى الأحكام ، اختلف لها الفقهاء فى الفتيا ، حتى افترق الحجازيون والعراقيون فى أكثر أبواب الفقه ، وكُلٌّ يبنى على أصل من روايتهم .[1]

ويورد رحمه الله تعالى قوله : ويقدحون فى الشيخ يسوى بين على وعثمان أو يقدم عليا عليه ويروون عن أبى الطفيل عامر بن واثلة صاحب راية المختار وعن جابر الجعفى وكلاهما يقول بالرجعة .

ويصف محدثيهم بقوله : قالوا : وكلما كان المحدث أموق[2] كان عندهم أنفق[3] ، وإذا كان كثير اللحن والتصحيف كانوا به أوثق ، وإذا ساء خلقه ، وكثر غضبه ، واشتد حدة وعسرة فى الحديث ، تهافتوا عليه .

ويختم رحمه الله تعالى بقوله : هذا ما حكَيْتَ فى طعنهم على أصحاب الحديث ، وشكوتَ تطاول الأمر بهم على ذلك من غير أن ينضح عنهم ناضح ، ويحتج لهذه الأحاديث محتج ، أو يتأولها متأول ، حتى أنسوا بالعيب ، ورضوا بالقذف ، وصاروا بالإمساك عن الجواب كالمسلّمين ، وبتلك الأمور معترفين . ثم يقول رحمه الله تعالى :

---

(١) انظر (تأويل مختلف الحديث) ص١٢ - ١٦ بتصرف .
(٢) الأموق : الأحمق . يقال « (ماق) الرجل : حمق وهلك حُمْقًا وغباوة » المعجم الوسيط جـ٢ ص٨٩٩ . ط دار إحياء التراث العربى .
(٣) أنفق : أى راجت تجارته . المرجع السابق جـ٢ ص٩٥٠ بتصرف .

﴿٤٥﴾

وتذكرت أنك وجدت فى كتابى المؤلف فى « غريب الحديث » بابا ذكرت فيه شيئاً من المتناقض عندهم ، وتأولته فأملت بذلك أن تجد عندى فى جميعه مثل الذى وجدته فى تلك من الحجج ، وسألت أن أتكلف ذلك محتسبا للثواب .

فتكلفته بمبلغ علمى ومقدار طاقتى ، وأعدت ما ذكرت فى كتبى من هذه الأحاديث ، ليكون الكتاب تاما جامعا للفن الذى قصدوا الطعن به .

ويعقب على ذلك بقوله رحمه الله تعالى : وقدمتُ – قبل ذكر الأحاديث ، وكشف معانيها – وصف أصحاب الكلام ، وأصحاب الحديث ، بما أعرف به كل فريق .[1]

ويقول رحمه الله تعالى : ونحن لم نُرِدْ فى هذا الكتاب أن نرد على الزنادقة والمكذبين بآيات الله عز وجل ورسله ، وإنما كان غرضنا ، الرد على من ادّعى على الحديث ، التناقض ، والاختلاف ، واستحالة المعنى من المنتسبين إلى المسلمين .[2]

وهو بذلك يحدد وجهة دفاعه ، فالمكذبين بآيات الله تعالى لهم أسلوب ومنهج فى المناقشة ، يناسب حالهم ، فلكل مقام مقال ، وهذا يدل على وضوح منهجه ، ودقة توجهه ، ووضوح هدفه رحمه الله تعالى .

*** وصف ابن قتيبة لأصحاب الكلام وأصحاب الرأى فى عصره :**

لما كان هذا الكتاب مواجهة بين ابن قتيبة رحمه الله تعالى وبين أصحاب الكلام وأصحاب الرأى ، وغيرهما من الفرق أراد أن يبين مفاهيمهم ومبادئهم ، ولذلك نجده قبل أن يتناول (الأحاديث التى ادّعوا عليها التناقض) عقد بابا فى (ذكر أصحاب الكلام وأصحاب الرأى) .

---

(١) (تأويل مختلف الحديث) ص١١/١٩ باختصار .
(٢) المصدر السابق ص١١٧ .

﴿٤٦﴾

ولم يكتف بذلك بل قام بوصف أصحاب الحديث أيضا ، وبين أنه لن يؤثر الهوى أو ظلم الخصم حيث يقول : « وقدمت – قبل ذكر الأحاديث ، وكشف معانيها – وصف أصحاب الكلام وأصحاب الحديث ، بما أعرف به كل فريق ، وأرجو أن لا يطلع ذو النهى منى ، على تعمد لتمويه ، ولا إيثار لهوى ، ولا ظلم الخصم »[1] وهذا يعدُّ إنصافا منه وعدلاً ، وبحثا عن الحق والصواب والجهر به ، دون أن يخشى فى الله تعالى لومة لائم ، أو يميل إلى طائفة ناصرٌ لها دون أن يكون لها الحق فى ذلك .

أولا : وصفه أصحاب الكلام :

يبدأ ابن قتيبة رحمه الله تعالى وصف أصحاب الكلام ببيان أن هذا الوصف جاء نتيجة تدبر لأقوالهم ، وأن خوضه فى هذه المسائل لم يكن فيها حاطب ليل ، وإنما عن دراسة واجتهاد ، ونظر فاحص .

فيتحدث عن موقفهم من الدين كمحال يصير بهذا الموقف فنراه يقول : (وقد تدبرت – رحمك الله تعالى – مقالة أهل الكلام ، فوجدتهم يقولون على الله ما لا يطمون ، ويفتون الناس بما يأتون ، ويبصرون القذى فى عيون الناس ، وعيونهم تُطْرف على الأجذاع ، ويتهمون غيرهم فى النقل ، ولا يتهمون آراءهم فى التأويل، ومعانى الكتاب والحديث ، وما أودعاه من لطائف الحكمة وغرائب اللغة لا يدرك بالطفرة والتولد والعرض والجوهر ، والكيفية والكمية والأبنية .[2]

وفى هذا النص بيان عام لهذه الطائفة ، الذى يعقب عليه بتوجيههم إلى المنهج السوى ، مبينا الدافع لموقفهم فيقول رحمه الله تعالى : « ولو ردوا المشكل

(١) (تأويل مختلف الحديث) ص١٩ .
(٢) الطفرة والتولد والعرض والجوهر ... الخ مصطلحات تجرى على ألسنة المتكلمين ويذكرونها فى مؤلفاتهم . انظر (تأويل مختلف الحديث) ص٢٠ .

منهما [١] إلى أهل العلم بهما ، وضح لهم المنهج ، واتسع لهم المخرج ، ولكن يمنع من ذلك طلب الرياسة ، وحب الأتباع ، واعتقاد الإخوان بالمقالات والناس أسراب طير يتبع بعضها بعضاً » .[٢]

ويضرب مثالاً على شدة تمسكهم بذلك بقوله : « ولو ظهر لهم من يدّعى النبوة – مع معرفتهم بأن رسول الله صلى الله عليه وسلم خاتم الأنبياء ، أو من يدّعى الربوبية – لوجد على ذلك أتباعا وأشياعا » .[٣]

ويُظهر مدى إختلافهم وتناقضهم حين يقول : (وقد كان يجب – مع ما يدعونه في معرفة القياس وإعداد آلات النظر – أن لا يختلفوا كما لا يختلف الحساب والمساح ، والمهندسون ، لأن آلتهم لا تدل إلا على عدد واحد ، وإلا على شكل واحد ، وكما لا يختلف حذاق الأطباء في الماء وفي نبض العروق لأن الأوائل قد وقفوهم من ذلك على أمر واحد ، فما بالهم أكثر الناس إختلافا ، لا يجتمع اثنان من رؤسائهم على أمر واحد في الدين ...) .[٤]

وأشار بعد ذلك إلى أن الخلاف بينهم لو كان في الفروع والسنن لهان الأمر واتسع لهم العذر وإن كان لا عذر لهم ، بل إن الخلاف دار حول العقائد حين يقول بمرارة : « ولو كان اختلافهم في الفروع والسنن ، لاتسع لهم العذر عندنا ، وإن كان لا عذر لهم ، مع ما يدعونه لأنفسهم كما اتسع لأهل الفقه ووقعت لهم الأسوة بهم .

ولكن إختلافهم في التوحيد ، وفي صفات الله تعالى ، وفي قدرته ، وفي نعيم أهل الجنة ، وفي عذاب أهل النار ، وعذاب البرزخ ، وفي اللوح ، وفي غير ذلك مما لا يعلمها نبي إلا بوحي من الله تعالى » .[٥]

---

(١) أي القرآن الكريم والسنة النبوية .
(٢) انظر (تأويل مختلف الحديث) ص٢٠ .
(٣) المصدر السابق ص٢١ .
(٤ ، ٥) المصدر السابق ص٢١ .

*** مما يفترق به المحدثون عن المتكلمين كما يراه ابن قتيبة :**

يرى ابن قتيبة رحمه الله تعالى أن أصحاب الحديث هم أهل إجتماع ونظام أنس واتفاق وعكس ذلك أصحاب الكلام ويؤكد ذلك بالأمثلة حين يقول : « ولو أردنا – رحمك الله – أن ننتقل عن أصحاب الحديث ونرغب عنهم إلى أصحاب الكلام ، ونرغب فيهم ، لخرجنا من إجتماعه إلى تشتت ، وعن نظام إلى تفرق ، وعن أنس إلى وحشة ، وعن اتفاق إلى اختلاف ، لأن أصحاب الحديث كلهم مجمعون على أن ما شاء الله كان ، وما لم يشأ لا يكون ، وعلى أنه خالق الخير والشر ، وعلى أن القرآن الكريم كلام الله تعالى غير مخلوق ، وعلى أن الله تعالى يرى يوم القيامة ، وعلى تقديم الشيخين ، وعلى الإيمان بعذاب القبر ، لا يختلفون فى هذه الأصول ، ومن فارقهم فى شئ منها نابذوه وباغضوه ، وبدّعوه وهجروه .

وإنما اختلفوا فى اللفظ بالقرآن لغموض وقع فى ذلك ، ولكهم مجمعون على أن القرآن بكل حال – مقروءاً ومكتوبا ومسموعا ومحفوظا – غير مخلوق فهذا الإجماع .»[1]

وأما الإتساء فبالعلماء المبرزين ، والفقهاء المتقدمين ، والعباد المجتهدين الذين لا يجارون ، ولا يبلغ شأوُهم ، مثل سفيان الثورى ، ومالك بن أنس ، والأوزاعى ، وشعبة ، والليث بن سعد وعلماء الأمصار ...

ويضرب رحمه الله تعالى لأصحاب الكلام مثلا بقوله :

---

(١) أشار – رحمه الله تعالى – بكلامه هذا إلى عقيدة أهل السنة والجماعة وبها نؤمن إلى أن نلقى الله تعالى ، وفى كلامه أيضا : نفى للتهم التى رمى بها أئمة الحديث كأحمد بن حنبل ، والبخارى رحمهما الله تعالى فى فتنة القول بخلق القرآن الكريم . وانظر (عقيدة السلف الصالح) اعداد د. محمد الكيالى .

فإذا نحن أتينا أصحاب الكلام ، لما يزعمون أنهم عليه من معرفة القياس ، وحسن النظر ، وكمال الإرادة ، وأردنا أن نتعلق بشئ من مذاهبهم ، ونعتقد شيئا من نحلهم ، وجدنا (النَّظام) [١] شاطراً من الشطار ، يغدوا على سكر ويروح على سكر ، ويبيت على جرائرها ، ويدخل فى الأدناس ، ويرتكب الفواحش ، والشائنات وهو القائل :

مـا زلت آخـذ روح الذق فى لطف ∴ واستبيح دما من غير مجروح
حتى انثنيت ولى روحان فى جسدى ∴ والذق مطروح جـسم بلا روح[٢]

ثم يسرد – ابن قتيبة – طائفة من شبهاتهم ، وطعونهم فى الصحابة وغيرهم من رواة الحديث ، فهم يدعون التناقض على الصحابة فى روايتهم ، ومن أمثلة ما أورده – رحمه الله – عنهم ثم قام بالرد عليه – وفى طيه بيان لطريق من طرق إزالة ما ظاهره التناقض – حديثا نسبوا فيه الكذب إلى عبد الله بن مسعود فيقول رحمه الله : (وأما حديثه [٣] الآخر الذى نسبه فيه إلى الكذب فقال : رأى قوما من الزط [٤] فقال : هؤلاء أشبه من رأيت بالجن ليلة الجن ثم سئل عن ذلك فقيل له : كنت مع النبى صلى الله عليه وسلم فادّعى فى الحديث الأول أنه شهدها ، وأنكر ذلك فى الحديث الآخر وتصحيحه الخبرين عنه ، فكيف يصح هذا عن ابن مسعود ، مع ثاقب فهمه ، وبارع علمه فى السنة الذين انتهى إليهم العلم بها ، واقتدت به الأمة مع خاصته برسول الله صلى الله عليه وسلم ولطف محله . وكيف يجوز عليه أن يقرّ بالكذب ، هذا الإقرار ، فيقول اليوم : شهدت ، ويقول غدا : لم أشهد ؟

(١) النَّظام : هو إبراهيم بن سيار بغدادى مشهور من المعتزلة . انظر : (نزهة الألباب فى الألقاب) لأحمد بن على بن حجر الشافعى جـ٢ ص٢٢٠ .
(٢) انظر : تأويل مختلف الحديث ص٢٣ ، ٢٤ بتصرف .
(٣) أى النظام .
(٤) الزُّط : جيل من الناس الواحد زُطِّىّ . مختار الصحاح ط ص١٢٤ .

﴿٥٠﴾

ولو جهد عدوه ، أن يبلغ منه ما بلغه من نفسه ، ما قدر ولو كان به خبل ، أو عته، أو آفة ، ما زاد على ما وسم به نفسه .

وأصحاب الحديث لا يثبتون حديث الزط [1] ، وما ذكر من حضوره مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلة الجن ، وهم القدوة عندنا فى المعرفة بصحيح الأخبار وسقيمها ، لأنهم أهلها والمعنون بها ، وكل ذى ضاعة أولى بضاعته . غير أنا لا نشك فى بطلان أحد الخبرين لأنه لا يجوز على عبد الله بن مسعود أن يخبر الناس عن نفسه بأنه قد كذب ، ولا يسقط عندهم مرتبته . ولو فعل ذلك ، لقيل له : فلم خبرتنا أمس بأنك شهدت .

فإن كان الأمر على ما قال أصحاب الحديث ، فقط سقط الخبر الأول ، وإن كان الحديثان جميعا صحيحين ، فلا أرى الناقل للخبر الثانى إلا وقد أسقط منه حرفا ، وهو (غيرى) يدلك على ذلك أنه قال : قيل له ، أكنت مع النبى صلى الله عليه وسلم ليلة الجن ؟ فقال : ما شهدها أحد منا غيرى » . فأغفل الراوى (غيرى) إما بأنه لم يسمعه ، أو بأنه سمعه فنَسِيَه ، أو بأن الناقل عنه أسقطه . وهذا وأشباهه قد يقع ولا يؤمن ، ومما يدل على ذلك ، أنه قال له : هل كنت مع النبى صلى الله عليه وسلم ليلة الجن ؟ فقال : « ما شهدها أحد منا » .

وليس هذا جواباً لقوله : (هل كنت ؟) وإنما هو جواب لقول السائل : هل كنت مع النبى صلى الله عليه وسلم ليلة الجن ؟ وإذا كان قول السائل : هل كنت مع النبى صلى الله عليه وسلم ليلة الجن ؟ حسن أن يكون الجواب : « ما شهدها أحد منا غيرى » ، يؤكد ذلك ما كان من متقدم قوله .[1]

من هذا نرى كيف يناقش ابن قتيبة رحمه الله تعالى خصمه ، مناقشة هادئة

(١) انظر (تأويل مختلف الحديث) ص٣٥ / ٣٧ .

لا عنف فيها ، ولا تطاول . بل بالحجة والبيان الواضح الذى لا يمكن أن ينكره طالب الحق والصواب .

فقد رَدَّ دعواهم فى تناقض الروايتين ، واتهامهم صحابى جليل من صحابة النبى صلى الله عليه وسلم بالكذب ، فأبطل دعواهم ، وأبان عن براءة الصحابى الجليل مما اتهموه به زورا وبهتانا .

فهذا مثال مما أورده ابن قتيبة رحمه الله تعالى من أقوال النظّام الذى بينها وأجاب عنها ، كما بين – رحمه الله تعالى – أن له أقاويل أخرى ، فى أحاديث يدعى عليها أنها مناقضة للكتاب ، وأحاديث يستبشعها من جهة حجة العقل ، وذكر أن جهة حجة العقل ، قد تنسخ الأخبار وأحاديث ينقض بعضها بعضا سيذكرها – رحمه الله تعالى – فيما بعد إن شاء الله تعالى » .[١]

ثم يتناول – رحمه الله تعالى – بعض أقاويل أبى الهذيل العلاف [٢] وبكر – صاحب البكرية – وهشام بن الحكم وثمامة ومحمد بن الجهم البرمكى من أصحاب الكلام .

فيرى أن أبا هذيل العلاف يرتكب الأخطاء فى العقيدة ، ويرى أن بكر من أحسنهم حالا فى التوقى ، كما يرى أن هشام بن الحكم كان رافضا غاليا ، وثمامة فنجده – كما يقول رحمه الله تعالى – من رقة الدين ، وتنقص الإسلام والاستهزاء به بما لا يكون على مثله رجل يعرف الله تعالى ويؤمن به ، ويرى أن محمدا بن الجهم البرمكى قد اتخذ كتب أرستطاطاليس مصحفا له فى الكون والفساد والكيان وحدود المنطق بها . [٣] ويناقش كل واحد منهم فى بعض أقاويله فى هذه المقدمة

(١) راجع (تأويل مختلف الحديث) ص٤٤ ، ٤٥ .
(٢) المرجع السابق ص٤٥/٥١ بتصرف .
(٣) المرجع السابق ص٤٧ .

ويرد عليه بما يبين الحقيقة التى يحرص عليها ، ولا غرو أننا نراه ينصف (بكرا) صاحب البكرية ، حين يقول : « أنه من أحسنهم حالا » [١] ، وهذا يثبت مدى حرصه على الوصول إلى الحق وإلى الدلالة على الصواب الشرعى .

ثانيا : أصحاب الرأى :

ويصفهم ابن قتيبة رحمه الله تعالى بأنهم « يختلفون ويقيسون ، ثم يدعون القياس ويستحسنون ، ويقولون بالشئ ويحكمون به ثم يرجعون » .

ويرى – رحمه الله تعالى – أنا أبا حنفية من أصحاب الرأى ، فيروى بعض أقوايله ويناقشه فيها .

وينبه إلى أن إسحاق بن راهويه من أشد المناهضين لأصحاب الرأى غير محب لهم – وينقل عن أبى يوسف قوله : « من طلب الدين بالكلام تذندق ، ومن طلب المال بالكيمياء أفلس ، ومن طلب غرائب الحديث كُذِّبَ » .[٢]

ويبين – رحمه الله تعالى – أن هذه الصفات استقى بعضها من مجالسهم مباشرة قائلا « وقد كنت فى عنفوان الشباب وتَطَلُّبِ الآداب ، أحب أن أتعلق من كل علم بسبب ، وأن أضرب فيه بسهم .

فربما حضرت بعض مجالسهم ، وأنا مغتر بهم ، طامع أن أصدرُ عنه بفائدة، أو كلمة تدل على خير ، أو تهدى لرشد .

فأرى من جرأتهم على الله تبارك وتعالى ، وقلة توقيهم ، وحملهم أنفسهم [٣] على العظائم لطرد القياس ، أو لئلا يقع انقطاع – ما أرجع معه خاسراً نادماً ، وهذا يدل على مدى حصافته – رحمه الله تعالى – وتدبره لما يسمع ، وما كان لديه

---

(١) المرجع السابق ص٥١ .
(٢ ، ٣) انظر المصدر السابق ص٦٠ .

من خلفية دينية مستقاة من نبع صحيح ، ينطلق من خلاله إلى ما هو صواب موافق لكتاب الله تعالى وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ، وأن هذه صفة له منذ عنفوان شبابه .

* ثبوت الخبر عندهم ومناقشة ابن قتيبة لهم :

لقد اختلف أصحاب الكلام والرأى فى ثبوت الخبر عندهم وقد أورد ابن قتيبة أقوالهم فى ذلك وناقش أدلتهم فيقول :

« قال : واختلفوا فى ثبوت الخبر فقال بعضهم : يثبت الخبر بالواحد الصادق ، وقال آخر : يثبت باثنين لأن الله تعالى أمر باشهاد اثنين عدلين . وقال آخر : يثبت بثلاثة ، لأن الله عز وجل قال : ﴿ فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا فى الدين ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم ﴾ (١) قالوا : وأقل ما تكون الطائفة ثلاثة .

وغلطوا فى هذا القول ، لأن الطائفة تكون واحداً ، واثنين ، وثلاثة ، وأكثر ، لأن الطائفة بمعنى القطعة ، والواحد قد يكون قطعة من القوم .

وقال الله تعالى ﴿ وليشهد عذابهما طائفة من المؤمنين ﴾ (٢) يريد الواحد والاثنين.

وقال آخر : يثبت بأربعة ، لقول الله تعالى ﴿ لولا جاءوا عليه بأربعة شهداء ﴾ (٣) .

وقال آخر : يثبت باثنى عشر لقول الله تعالى ﴿ وبعثنا منهم اثنى عشر نقيبا ﴾ (٤) .

---

(١) سورة التوبة ﴿ ٩ ﴾ .
(٢) سورة النور ﴿ ٢ ﴾ .
(٣) سورة النور ﴿ ١٣ ﴾ .
(٤) سورة المائدة ﴿ ١٢ ﴾ .

﴿٥٤﴾

وقال آخر : يثبت بعشرين رجلا ، لقول الله تعالى ﴿ إن يكن منكم عشرون صابرون يغلبون مائتين ﴾ .(١)

وقال آخر : يثبت بسبعين رجلا لقول الله عز وجل ﴿ واختار موسى قومه سبعين رجلا لميقاتنا ﴾ (٢) ، فجعلوا كل عدد ذكر فى القرآن ، حجة فى صحة الخبر .

ولو قال قائل : إن الخبر لا يثبت إلا بثمانية ، لقول الله تعالى فى أصحاب الكهف وهم الحجة على أهل ذلك الزمان ﴿ سبعة وثامنهم كلبهم ﴾ (٣) ولا يجوز أن يكونوا ثمانية ، حتى يكون الكلب ثامنهم .

أو قال : لا يثبت الخبر إلا بتسعة عشر لقول الله تعالى ، فى خزنة جهنم حين ذكرها ، فقال ﴿ عليها تسعة عشر ﴾ (٤) لكان أيضا قولا وعددا مستخرجا من القرآن .

وهذه الاختيارات ، إنما اختلفت هذا الاختلاف ، لاختلاف عقول الناس ، وكل يختار على قدر عقله .

ولو رجعوا إلى أن الله تعالى إنما أرسل إلى الخلق كافة ، رسولا واحدا وأمرهم باتباعه وقبول قوله ، وأنه لم يرسل اثنين ولا أربعة ، ولا عشرين ولا سبعين ، فى وقت واحد ، لدلّهم ذلك على أن الصادق العدل ، صادق الخبر ، كما أن الرسول الواحد المبلغ عن الله تعالى ، صادق الخبر ، ولم يكن قصدنا لهذا الباب ، فنطيل فيه ، .(٥)

---

(١) سورة الأنفال ﴿ ٦٥ ﴾ .
(٢) سورة الأعراف ﴿ ١٥٥ ﴾ .
(٣) سورة الكهف ﴿ ٢٢ ﴾ .
(٤) سورة المدثر ﴿ ٣٠ ﴾ .
(٥) تأويل مختلف الحديث ص٦٣/٦٤ .

﴿٥٥﴾

ونلاحظ فى هذا النص كيف ينقل آراءهم بأدلتها ، ثم يثنى ليرد الآراء بموهبة فائقة ، وحجة دامغة ، فحينما يستدلون بالطائفة ، يبين لهم أن الطائفة يحتمل أن تطلق على الواحد كما تطلق على الأكثر منه ، فليس فى الآية دليل على تخصيص الثلاثة .

ويبين منشأ الخلاف بينهم ، الذى يرجع إلى أنهم جعلوا كل عدد ذكر فى القرآن الكريم حجة فى صحة الخبر ، كما يرجع إلى إختلاف عقول الناس فكل يختار على قدر عقله .

ثم يباغتهم بهذه السنة الربانية فى إرسال الرسل المبلغين عن الله تعالى وأنه لم يرسل لكل قوم سوى واحد ، ثم ختمهم بنبينا ورسولنا محمد صلى الله عليه وسلم، ولا يعنى ذلك إلا الثقة العدل الضابط ، الذى توافرت فيه صفات القبول لراويته ، فلم يقع منه ما يخل براويته .

*** ثالثا : أصحاب الحديث :**

يصف ابن قتيبة – رحمه الله تعالى – أصحاب الحديث أنهم يبحثون دائما عن الحق من وجهته ، المتبعين لسنة رسول الله – صلى الله عليه وسلم – ، الطالبين لآثاره وأخباره ، جادين فى طلب الخبر الواحد من الناقل له مباشرة ، تارة لتوثيق الخبر ، وتارة لعلو الإسناد .

لقد وصلوا بهذا إلى صحيح الأخبار وضعيفها ، والناسخ منها والمنسوخ ، حتى ظهر الحق ، وانقاد للسنة من كان عنها معرضا فيقول . رحمه الله تعالى :

« فأما أصحاب الحديث فإنهم التمسوا الحق من وجهته ، وتتبعوه من مظانه ، وتقربوا من الله تعالى ، باتباعهم سنن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وطلبهم لآثاره ، وأخباره برا وبحرا ، وشرقا وغربا .

يرحل الواحد منهم راجلا مقويا ، فى طلب الخبر الواحد ، أو السنة الواحدة ،

﴿٥٦﴾

حتى يأخذها من الناقل لها مشافهة ، ثم لم يزل فى التنقير عن الأخبار ، والبحث لها حتى فهموا صحيحها وسقيمها ، وناسخها ومنسوخها ، وعرفوا من خالفها من الفقهاء إلى الرأى ، فنبهوا على ذلك حتى نجم الحق بعد أن كان عافيا ، وبسق بعد أن كان دارساً ، واجتمع بعد أن كان متفرقا ، وانقاد للسنة من كان عنها معرضا ، وتنبه عليها من كان عنها غافلا ، وحكم بقول رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد أن كان يحكم بقول فلان وفلان وإن كان فيه خلاف على رسول الله صلى الله عليه وسلم » .[1]

وبعد هذا الوصف العام لأصحاب الحديث ، وبيان موقفهم ، عدَّدَ – رحمه الله تعالى – بعض أقوال الطاعنين فيهم ، وأمثلة لما أخذوه عليهم ورد على طعونهم وبين موقف أهل السنة من كل هذه الطعون التى نذكرها بإيجاز فيما يلى :

١ – منها قوله : « وقد يعيبهم الطاعنون بحملهم الضعيف ، وطلبهم الغرائب وفى الغرائب الداء – ويطل ابن قتيبة ذلك بقوله – : ولم يحملوا الضعيف والغريب، لأنهم رأوهما حقا ، بل جمعوا الغث والسمين ، والصحيح والسقيم ، ليميزوا بينهما ، ويدلوا عليهما .

– وبعد أن يذكر أمثلة لما استدلوا به على قولهم ويبين أنه من قول بعض الوضاعين كعاصم الكوزى وسهل السراج ، وأيوب بن خوط وغيرهم ويستعين أحيانا بحكم العلماء كقوله : وقال : عبد الله بن المبارك فى أحاديث أبى بن كعب « من قرأ سورة كذا ، فله كذا ، ومن قرأ سورة كذا ، فله كذا ، أظن أن الزنادقة وضعته » .

يقول ابن قتيبة : وقد جاءت أحاديث صحاح مثل « قلب المؤمن بين أصبعين من أصابع الرحمن » – ويذكر طائفة منها – ثم يقول : ولهذه الأحاديث مخارج سنخبر بها فى موضعها من هذا الكتاب إن شاء الله تعالى .[2]

(١) انظر (تأويل مختلف الحديث) ص٧١ .
(١) انظر (تأويل مختلف الحديث) ص٧١/٧٤ باختصار .

٢ – ومن طعونهم فى أهل الحديث التى يذكرها رحمه الله تعالى ويرد عليها ما جاء فى قوله : « وأما طعنهم عليهم بقلة المعرفة لما يحملون ، وكثرة اللحن والتصحيف ، فإن الناس لا يتساوون جميعا فى المعرفة والفضل ، وليس صنف من الناس إلا وله حشو وشوب .

فأين هذا الغائب لهم عن الزهرى أعلم الناس بكل فن ، وحماد بن سلمة ، ومالك بن أنس ، وابن عون ، وأيوب ، ويونس بن عبيد ، وسليمان التيمى ، وسفيان الثورى ، ويحيى بن سعيد ، وابن جريج ، والأوزاعى ، وشعبة وعبد الله ابن المبارك ، وأمثال هؤلاء من المتقنين .

على أن المنفرد بفن من الفنون ، لا يعاب بالزلل فى غيره ، وليس على المحدث ، عيب أن يزل فى الإعراب ، ولا على الفقيه أن يزل فى الشعر ، وإنما يجب على كل ذى علم ، أن يتقن فنه ، إذا إحتاج الناس إليه فيه ، وانعقدت له الرئاسة به ، وقد يجتمع للواحد علوم كثيرة والله يؤتى الفضل من يشاء .

ثم يقول رحمه الله تعالى :

ولا أعلم أحدا من أهل العلم والأدب إلا وقد أسقط فى علمه كالأصمعى ، وأبى زيد ، وأبى عبيدة ، وسيبويه ، والأخفش ... وكالأئمة من قراء القرآن ، والأئمة من المفسرين .

وقد أخذ الناس على الشعراء ، فى الجاهلية والإسلام ، الخطأ فى المعانى وفى الإعراب ، وهم أهل اللغة ، وبهم يقع الإحتجاج .

فهل أصحاب الحديث فى سقطهم إلا كصنف من الناس ؟

على أنا لا نخلى أكثرهم من العذْل فى كتبنا ، فى تركهم الاشتغال بعلم ما قد كتبوا ، والتفقه بما جمعوا وتهافتهم على طلب الحديث من عشرة أوجه ، وعشرين وجهاً .

﴿٥٨﴾

وقد كان فى الوجه الواحد الصحيح ، والوجهين مَقْنَع لمن أرارد الله عز وجل بعلمه حتى تنقضى أعمارهم ، ولم يحلّوا من ذلك إلا بأسفار ، أتعبت الطالب ، ولم تنفع الوارث » .[١]

٣ – ثالث هذه الطعون ما أُطلِق على أصحاب الحديث من ألقاب حيث يقول رحمه الله تعالى : « وقد لقبوهم بالحشوية [٢] ، والنابتة [٣] ، والمجبرة ، وربما قالوا: الجبرية ، وسموهم الغثاء [٤] ، والغُثْر [٥] .

ويرد – رحمه الله تعالى – على هذا بقوله : « وهذه كلها أنباز لم يأت بها خبر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، كما أتى عنه فى القدرية (أنهم مجوس هذه الأمة ، فإن مرضوا فلا تعودوهم ، وإن ماتوا فلا تشهدوا جنائزهم) » .

وفى الرافضة ، برواية ميمون بن مهران عن ابن عباس قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « يكون قوم فى آخر الزمان ، يسمون الرافضة ، يرفضون الإسلام ويلفظونه ، فاقتلوهم ، فإنهم مشركون » .[٦]

وفى المرجئة « صنفان من أمتى ، لا تنالهم شفاعتى ، لعنوا على لسان سبعين نبياً المرجئة ، والقدرية » [٧] .

وفى الخوارج « يمرقون من الدين ، كما يمرق السهم من الرمية وهم كلاب أهل النار » [٨] فهذه أسماء من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وتلك أسماء

(١) المصدر السابق ص٧٥/٧٧ بتصرف .
(٢) الحشوية صفة أطلقها أهل الكلام على أهل الحديث ظلما وعدوانا .
(٣) جاء فى المعجم الوسيط « يقال هذا قول النابتة : الأغمار من الأحداث . جـ٢ ص٩٠٢
(٤) الغثاء : بالضم والمد فى الأصل : ما يجئ فوق السيل ، مما يجعله من الزبد والوسخ وغيره وأطلقوه عليهم مجازا . هامش تأويل مختلف الحديث ص٧٧ .
(٥) والغُثْر : أصله الجماعة المختلطة من غوغاء الناس المعجم الوسيط جـ٢ ص٦٥٠ .
(٦) أخرجه أحمد فى مسنده جـ١ ص١٠٢ .
(٧) أخرجه : الترمذى / كتاب القدر / باب ما جاء فى القدرية / جـ٤ ص٤٥٤ .
(٨) أخرجه : أخرجه الترمذى / كتاب الفتن / باب فى صفة المارقة / جـ٤ ص٤٨١ .

﴿٥٩﴾

مصنوعة ، وقد يحمل بعضهم الحميةُ على أن يقول : الجبرية هم القدرية ، ولو كان هذا الاسم يلزمهم ، لاستغنوا به عن الجبرية .

ولو ساغ هذا لأهل القدر ، لساغ مثله للرافضة ، والخوارج ، والمرجئة وقال كل فريق منهم لأهل الحديث ، مثل الذى قالته القدرية ، والأسماء لا تقع غير مواقعها ، ولا تلزم إلا أهلها ، ويستحيل أن تكون الصاقلة ، هم الأساكفة ، والنجار هو الحداد .

أما القطر ، فإن رجلا لو دخل المصر ، واستدل على القدرية ، فيه ، أو المرجئة ، لدله الصبى والكبير ، والمرأة والعجوز ، والعامى والخاصى ، والحشوة والرعاع على المسلمين بهذا الاسم ولو استدل على أهل السنة ، لدلوه على أصحاب الحديث . ولو مرت جماعة فيهم القدرى ، والسنى ، والرافضى ، والمرجئ ، والخارجى ، فقذف رجل القدرية ، أو لعنهم ، لم يكن المراد بالشتم أو اللعن عندهم ، أصحاب الحديث . هذا أمر لا يدفعه دافع ولا ينكره منكر .

وأما النظر ، فإنهم أضافوا القدر إلى أنفسهم ، وغيرهم يجعله لله تعالى ، دون نفسه ، ومدعى الشئ لنفسه ، أولى بأن ينسب إليه ، ممن جعله لغيره ، ولأن الحديث جاءنا ، بأنهم مجوس هذه الأمة ، وهم أشبه قوم بالمجوس ، لأن المجوس تقول بإلهين ، وإياهم أراد الله تعالى بقوله ﴿ لا تتخذوا إلهين اثنين إنما هو إله واحد ﴾ [١] . وقالت القدرية : نحن نفعل ما لا يريد الله تعالى ، ونقدر على ما لا يقدر . [٢] وحين يقول عمرو بن عبيد عن أيوب ، وابن عون ، ويونس ، والتيمى ، أولئك أرجاس أنجاس ، أموات غير أحياء ، وهم ومن أعلام المحدثين يقول أبو محمد ابن قتيبة : « وهؤلاء الأربعة الذين ذكرهم ، غرة أهل زمانهم ، فى العلم والفقه ، والاجتهاد فى العبادة ، وطيب المطعم ، وقد درجوا على ما كان عليه مَنْ قبلهم من الصحابة والتابعين » . [٣]

---

(١) سورة النحل ﴿ ٥١ ﴾ .
(٢) انظر (تأويل مختلف الحديث) ص٧٨ .
(٣) انظر المصدر السابق ص٨١ .

٤ – ويضع أبو محمد بن قتيبة سؤالا ويرد عليه ليقطع طريق الطاعنين فى أهل الحديث ، ويستأصل طعونهم فيقول :

« فإن قالوا : فإن أهل المقالات المختلفة ، يرى كل فريق منهم أن الحق فيما اعتقده ، وإن مخالفه على ضلال وهوى ، وكذلك أصحاب الحديث ، فيما انتحلوا ، فمن أين علموا علماً يقينا . إنهم على الحق ؟

قيل لهم : إن أهل المقالات ، وإن اختلفوا ، ورأى كل صنف منهم أن الحق فيما دعا إليه ، فإنهم مجمعون لا يختلفون ، على أن من اعتصم بكتاب الله عز وجل ، وتمسك بسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقد استضاء بالنور ، واستفتح باب الرشد ، وطلب الحق من مظانه .

وليس يدفع أصحاب الحديث عن ذلك إلا ظالم ، لأنهم لا يردون شيئاً من أمر الدين ، إلى استحسان ، ولا إلى قياس ونظر ، ولا إلى كتب الفلاسفة المتقدمين، ولا إلى أصحاب الكلام المتأخرين » .[1]

٥ – ويقول – رحمه الله تعالى – « فإن ادعو الخطأ بحملهم الكذب والمتناقض ، قيل لهم : أما الكذب والغلط والضعيف ، فقد نبهوا عليه ، على ما أعلمتك ، وأما المتناقض ، فنحن مخبرون بالمخارج منه ، ومنبهون على ما تأخر عنه علمك وقصر عنه نظرك وبالله الثقة وهو المستعان » .[2]

ويقصد بذلك ما سيرد فى موضوع الكتاب الأصلى وهو ذكر الأحاديث التى ادعوا عليها التناقض .

هذا عرض ابن قتيبة رحمه الله لطعون هؤلاء الأشرار فى أهل الحديث ، وأضيف إلى ما ذكره ، أن أهل الحديث هم أهل شرف وفخر ، وأهل عدالة وثقة .

---

(١) المصدر السابق ٨٢ .
(٢) المصدر السابق ص٨٣ .

ويكفى أهل الحديث من الشرف والفخر أن الرسول صلى الله عليه وسلم أثنى عليهم ومدحهم ، ووصفهم بأسمى الألقاب ، فهم عدول هذه الأمة ، وخلفاءه فى أمته ، عن ابن عباس قال سمعت على بن أبى طالب – رضى الله عنه – قال : خرج علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : اللهم ارحم خلفائى ، قلنا : يا رسول الله ومن خلفاؤك ؟ قال : الذين يروون أحاديثى ويعلمونها الناس ، [١] وقد دعا لهم النبى صلى الله عليه وسلم بالنضرة فقال : نضر الله امرءاً سمع مقالتى فوعاها فأداها كما سمعها فربّ مبلغ أوعى من سامع ، .[٢]

فهم أئمة لا يشق لهم غبار ، رحلوا وارتحلوا ، وحفظوا وكتبوا ، وتحروا الصدق والحق ، واجتنبوا الكذب والباطل ، حتى تركوا موسوعات ضخمة ، وثروة طائلة فى الحديث النبوى الشريف ، وهم بذلك أولى الناس بالنبى صلى الله عليه وسلم لقوله عليه الصلاة والسلام (إن أولى الناس بى يوم القيامة أكثرهم علىّ صلاة) [٣] قال الترمذى هذا حديث حسن غريب .

قال ابن حبان فى صحيحه : فى هذا الحديث بيان صحيح على أن أولى الناس برسول الله صلى الله عليه وسلم فى القيامة أصحاب الحديث ، إذ ليس من هذه الأمة قوم أكثر صلاة عليه منهم [٤] . وقال أبو نعيم : هذه منقبة شريفة يختص بها رواة الآثار ونقلتها لأنه لا يعرف لعصابة من العلماء من الصلاة على رسول الله صلى الله عليه وسلم ما يعرف لهذه العصابة .[٥]

وما رواه أسامة بن زيد من حديث : يحمل هذا العلم من كل خلف عدوله ينفون عنه تحريف الغالين وانتحال المبطلين وتأويل الجاهلين . ورواه غير واحد من الصحابة وأخرجه ابن عدى والدارقطنى ، وأبو نعيم قاله القاسمى .[٦]

---

(١) رواه الرامهرمزى فى « المحدث الفاصل » .
(٢) رواه أصحاب السنن وغيرهم .
(٣) أخرجه الترمذى : أبواب التطوع / ما جاء فى فضل الصلاة على النبى صلى الله عليه وسلم جـ١ ص٣٠٢ .
(٤ ، ٥) قواعد التحديث للقاسمى ص٥٠ .
(٦) المرجع السابق ص٤٨ ، ٤٩ بتصرف .

﴿٦٢﴾

وهذا التقرير النبوى الشريف قد سرى كالنسمة فى قلوب أصحابه ، رضوان الله تعالى عليهم – وأهل الإيمان العقلاء فى كل زمن وعصر – فإذا كان النبى صلى الله عليه وسلم قد أثنى على المحدثين خيرا ، فإن أصحابه أثنوا عليهم كذلك وعرفوا قدرهم لأنهم حملة الشريعة الإسلامية إلى الأمة . . فهذا عمر بن الخطاب رضى الله عنه يقول : سيأتى قوم يجادلونكم بشبهات القرآن فخذوهم بالسنن ، فإن أصحاب السنن أعلم بكتاب الله عز وجل ، .[1]

وهذه قطرة من وابل دال على علو مكانة أهل الحديث ، ورفعة منزلتهم وعلى من أراد الاستزادة ، فعليه بكتاب (شرف أهل الحديث) للخطيب البغدادى . فمهما تكلم المتكلمون وغيرهم فى أهل الحديث ، فلن ينالوا من شرفهم شئ ، فمن أعزه الله تعالى فلن يذله البشر .

وليس العداء للسنة هذا قد مرّ زمنه وانقضى فى عصر ابن قتيبة ، فإنه عداء يظهر – على أحسن الظن – من حين لآخر حتى عصرنا ، وها هو فضيلة الأستاذ الدكتور محمد محمد أبو شهبة يضع كتابا قيما هو (دفاع عن السنة) ومما ورد فيه قوله (وقد مُنِىَ الإسلام من قديم الزمان بأعداء لا ينامون ، يضمرون الكيد ، وينسجون الخيوط ، ويحيكون المؤامرات لذهاب دولته وسلطانه) [2] .

ولكن هيهات لهم فإن الله تعالى قد حفظ شرعه ودينه ، فلا مجال للمتكلمين ، ومن جرى مجراهم فى النيل من سنة النبى صلى الله عليه وسلم ، أو النيل من حملتها ، ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين .

(١) المرجع السابق ص٥٠ بتصرف .
(٢) انظر (دفاع عن السنة) أ.د / محمد محمد أبو شهبة ص٧ .

أمثلة

من الأحاديث التي ذكرها - رحمه الله تعالى - ورموها بالتناقض ومنهجه - رحمه الله تعالى - في رد ما ظاهره التعارض

١ – اعتبار أن السنة مفسرة ومبينة للقرآن الكريم وكاشفة لمجمله فيبين ذلك رحمة الله تعالى من خلال ما ظاهره التعارض بين قوله صلى الله عليه وسلم (إن الله تعالى مسح على ظهر آدم عليه السلام ، وأخرج منه ذريته إلى يوم القيامة ، أمثال الذر ، وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم ؟ قالوا : بلى) .[١]

وقوله تعالى ﴿ وإذا أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى ﴾ وعلة التناقض عندهم : أن الحديث يخبر أنه أخذ من ظهر آدم ، والكتاب يخبر أنه أخذ من ظهور بنى آدم .

فيقول رحمه الله تعالى : ونحن نقول : إن ذلك ليس كما توهموا ، بل المعنيان متفقان ، بحمد الله تعالى ومنّه ، صحيحان لأن الكتاب يأتى بجمل ، يكشفها الحديث واختصار تدل عليه السنة .

ويشرح ذلك بقوله : ألا ترى أن الله تعالى حين مسح ظهر آدم عليه السلام ، على ما جاء فى الحديث فأخرج منه ذريته أمثال الذر إلى يوم القيامة ، أن فى تلك الذرية الأبناء وأبناء الأبناء وأبناءهم إلى يوم القيامة .

فإذا أخذ من جميع أولئك العهد وأشهدهم على أنفسهم ، فقد أخذ من بنى آدم جميعا ، من ظهور ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم .[٢]

---

(١) انظر تأويل مختلف الحديث ص٨٣ .
(٢) سورة الأعراف ﴿ ١٧٢ ﴾ .
(٣) انظر تأويل مختلف الحديث ص٨٣ .

﴿٦٤﴾

٢ - ومن منهجه رحمه الله تعالى فى رد ما ظاهره التعارض النسخ وهو ما كان من الأمر والنهى - ويظهر ذلك فى قولهم بالتناقض بين قول رسول الله صلى الله عليه ووسلم « لا تستقبلوا القبلة بغائط ولا بول » ، وما روى عن عائشة أنها قالت « ذكر لرسول الله صلى الله عليه وسلم أن قوما يكرهون أن يستقبلوا القبلة بغائط أو بول ، فأمر النبى صلى الله عليه وسلم بخلائه ، فاستقبل به القبلة » . فقال أبو محمد : ونحن نقول : إن هذا الحديث يجوز عليه النسخ لأنه من الأمر والنهى ، فكيف لم يذهبوا إلى أن أحدهما ناسخ والآخر منسوخ ؟ إذا كان قد ذهب عليهم فيهما .

وليسا عندنا من الناسخ والمنسوخ ، ولكن لكل واحد منهما موضع يستعمل فيه، فالموضع الذى لا يجوز أن تستقبل القبلة فيه بالغائط والبول ، هى الصحارى والبراحات ، وكانوا إذا نزلوا فى أسفارهم لهيئة الصلاة ، استقبل بعضهم القبلة بالصلاة ، واستقبلها بعضهم بالغائط ، فأمرهم أن لا يستقبلوا القبلة بغائط ولا بول ، إكراما للقبلة ، وتنزيها للصلاة .

فظن قوم أن هذا أيضا ، يكره فى البيوت والكنف المحتفرة ، فأمر النبى صلى الله عليه وسلم بخلائه ، فاستقبل به القبلة .[1]

- ونلاحظ أيضا أنه يشير فى هذا المثال إلى سبب قول النبى صلى الله عليه وسلم وإيراد الحديث مما يزيد الإيضاح فى إزالة ما ظاهره التناقض.

✪ ✪ ✪

مثال آخر :

فى هذا المثال يبين أن السنة ناسخة للسنة وفى ذلك طريق لرد ما ظاهره

(١) انظر تأويل مختلف الحديث ص٨٥ ، ٨٦ بتصرف .

التناقض ، فيقول رحمه الله تعالى عند حديث أبى سعيد الخدرى فى النهى عن كتابة السنة وحديثى عبد الله بن عمرو فى قيد العلم ، وحديث كتابته فى الرضا والغضب .

ونحن نقول : إن فى هذا معنيين :

أحدهما : أن يكون من منسوخ السنة بالسنة ، كأنه نهى فى أول الأمر عن أن يكتب قوله ، ثم رأى بعد – لما علم أن السنن تكثر وتفوت الحفظ – أن تكتب وتقيد .

والمعنى الآخر : أن يكون خص بهذا عبد الله بن عمرو لأنه كان قارئا للكتب المتقدمة ، ويكتب بالسريانية والعربية ، وكان غيره من الصحابة أميين لا يكتب منهم إلا الواحد ، والإثنان ، وإذا كتب لم يتقن ، ولم يصب التهجى . فلما خشى عليهم الغلط فيما يكتبون نهاهم ، ولما أمن على عبد الله بن عمرو ذلك أذن له .[1]

٣ – ويرى رحمه الله تعالى أن إزالة ما ظاهره التعارض يمكن أن يبنى على : « أن حكم القليل ، يخالف حكم الكثير فى كثير من المواضع » فيقول رحمه الله تعالى عند التوفيق بين حديث أبى هريرة فى النهى عن المشى فى نعل واحدة – وحديث عائشة – ربما انقطع شسع رسول الله صلى الله عليه وسلم فمشى فى النعل الواحدة حتى يصلح الأخرى . » ونحن نقول : ليس ههنا خلاف بحمد الله تعالى ، لأن الرجل كان ينقطع شسع نعله ، فينبذها أو يعلقها بيده ، ويمشى فى نعل واحدة إلى أن يجد شسعاً .

وهذا يفحش ويقبح فى النعلين والخفين ، وكل زوجين من اللباس يستعمل فى اثنين ، فيستعمل فى واحد ويترك الآخر ، فأما أن ينقطع شسع الرجل ، فيمشى خطوة أو خطوتين أو ثلاثا ، إلى أن يصلح الآخر ، فإن هذا ليس بمنكر ولا قبيح .

(١) المصدر السابق ص٢٦٦ بتصرف .

﴿٦٦﴾

وحكم القليل يخالف حكم الكثير فى كثير من المواضع ، ألا ترى أنه لا يجوز للمصلى أن يمشى خطوة ، وخطوتين وخطوات وهو راكع إلى الصف الذى بين يديه ، ولا يجوز له أن يمشى وهو راكع مائة زراع ، ومائتى ذراع ، .[١]

وفى ذلك يلاحظ أيضا اعتماده على أحاديث الأحكام فى التوفيق بين ما ظاهره التناقض ، وهذا يدل على سعة علمه - رحمه الله تعالى - بالحديث وأن أقوال النبى صلى الله عليه وسلم يوضح بعضها بعضا .

✪ ✪ ✪

٤ - ويرى رحمه الله تعالى أن مما يمكن التوفيق به بين النصوص التى ظاهرها التعارض تطبيق قاعدة (أن حكم الضرورة خلاف حكم الاختيار) .

ويتضح ذلك من قوله - رحمه الله - عند التوفيق بين حديث عائشة (ما بال رسول الله صلى الله عليه وسلم قائما قط) وحديث حذيفة (أنه بال قائما) وهذا خلاف ذاك .

وهنا يقول : ونحن نقول ههنا - بحمد الله - اختلاف ، ولم يبل قائما قط فى منزله والموضع الذى كانت تحضر فيه عائشة رضى الله عنها . وبال قائما فى المواضع التى لا يمكن أن يطمئن فيها ، إما للثق [٢] فى الأرض وطين وقذر ، وكذلك الموضع الذى رأى فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم حذيفة يبول قائما كان مزبلة لقوم ، فلم يمكنه القعود فيه ، وحكم الضرورة خلاف حكم الاختيار .[٣]

٥ - ومن جهوده - رحمه الله تعالى - فى إزالة ما ظاهره التعارض استخدام التأويل والبحث عن مخرج ، لا تكلف فيه ، ولا تصنع .

---

(١) انظر تأويل مختلف الحديث ص٨٦ ، ٨٧ بتصرف .
(٢) الثق الندى والبلل ، ويقال للماء والطين يختلطان .
(٣) انظر (تأويل مختلف الحديث) ص٨٧ بتصرف .

فيقول رحمه الله تعالى عند ذكرهم (حديث يخالف كتاب الله تعالى) وذكروا فيه حديث أبى هريرة ، وزيد بن خالد ، وشبل أن رجلا قام إلى النبى صلى الله عليه وسلم ، فقال : يا رسول الله ، نشتك بالله ، إلا قضيت بيننا بكتاب الله تعالى . فقام خصمه وكان أفقه منه فقال : صدق ، أقض بيننا بكتاب الله ، وائذن لى فقال : قل .

قال : إن ابنى كان عسيفا [١] على هذا ، فزنى بامرأته ، فافتديت منه بمائة شاة وخادم ثم سألت رجالا من أهل العلم ، فأخبرونى أن على ابنى جلد مائة وتغريب عام ، وعلى امرأة هذا ، الرجم .

فقال : والذى نفسى بيده ، لأقضين بينكما بكتاب الله – المائة شاة ، والخادم رد عليك – وعلى ابنك جلد مائة وتغريب عام – وعلى امرأة هذا الرجم ، واغد يا أنيس على امرأة هذا ، فإن اعترفت فارجمها ، فعدا عليها ، فاعترفت فرجمها .

قالوا : (أصحاب الكلام) : وهذا خلاف كتاب الله عز وجل ، لأنه سأله أن يقضى بينهما بكتاب الله تعالى ، ثم قضى بالرجم والتغريب ، وليس للرجم والتغريب ذكر فى كتاب الله تعالى .

فيقول رحمه الله تعالى : ونحن نقول : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يرد بقوله : (لأقضين بينكما بكتاب الله) ههنا القرآن ، وإنما أراد (لأقضين بينكما بحكم الله تعالى) والكتاب يتصرف على وجوه : منها الحكم والفرض قال عز وجل ﴿ كتب عليكم القصاص ﴾ [٢] أى فرض عليكم ، وقال تعالى ﴿ وكتبنا عليهم فيها أن النفس بالنفس ﴾ [٣] أى حكمنا وفرضنا .[٤]

---

(١) أى أجيرا .
(٢) سورة البقرة ﴿ ١٧٨ ﴾ .
(٣) سورة المائدة ﴿ ٤٥ ﴾ .
(٤) انظر تأويل مختلف الحديث ص٨٨ ، ٨٩ بتصرف .

وهذا منطق مقبول ، فلا يفوته صلى الله عليه وسلم مرادهم فى الكلام ، كما أن الصحابة رضى الله عنهم يعلمون أن ما ينطق به النبى صلى الله عليه وسلم إنما هو وحى من عند الله تعالى ألا يرون أنه عندما جاءته امرأة ظاهر منها زوجها قال لا أجد لك شيئا ، وانتظر حتى نزل الوحى بصدر سورة (المجادلة) .

ومن هنا نرى – ابن قتيبة رحمه الله – شديد الفهم لمدلولات الألفاظ الواردة فى الأحاديث النبوية الشريفة ولا غرو فى ذلك فإنه الأديب البليغ .

مثال آخر :

قالوا (أصحاب الكلام) : (حديث يبطله الإجماع) :

رويتم عن الزهرى عن عروة عن عائشة رضى الله عنها أن امرأة كانت تستعير حليا من أقوام ، فتبيعه ، فأخبر النبى صلى الله عليه وسلم بذلك فأمر بقطع يدها . وقد أجمع الناس على أنه لا قطع على المستعير ، لأنه مؤتمن .

وهنا يقول أبو محمد بن قتيبة : ونحن نقول : إن هذا الحديث صحيح غير أنه لا يوجب حكما ، لأنه لم يقل فيه : إنه قطعها ، وإنما قيل أمر بقطعها ، وقد يجوز أن يأمر ولا يفعل ، وهذا قد يكون من الأئمة على وجه التحزير والترهيب ، ولا يراد به إيقاع الفعل .

وبعد أن يضرب الأمثلة – رحمه الله تعالى – على رجحان ما يقول يخلص إلى قوله :

وهكذا نقول فى الوعيد كله : أنه جائز أن يقع وأن لا يقع على حديث أبى هريرة عن النبى صلى الله عليه وسلم : من وعده الله على عمل ثوابا ، فهو منجز له ، ومن أوعده عقابا فهو بالخيار .[1]

(١) انظر (تأويل مختصر الحديث) ص٨٩ ، ٩٠ بتصرف .

﴿٦٩﴾

مثال ثالث :

(قالوا [١] حديث فى التشبيه) :

رويتم أنه – صلى الله عليه وسلم – قال لأحد ابْنَىْ إبنته : « والله إنكم لتُجَبِّبون وتُبَخِّلون ، وإنكم من ريحان الله ، وإن آخر وطأة وطئها الله بـ « وجَ » .

قال أبو محمد – رحمه الله – : ونحن نقول إن لهذا الحديث مخرجا حسنا ، قد ذهب إليه بعض أهل النظر ، وبعض أهل الحديث .

قالوا : إن آخر ما أوقع الله عز وجل بالمشركين بالطائف ، وكانت آخر غزاة غزاها رسول الله صلى الله عليه وسلم بـ(وجَ) و(وجَ) واد قبل الطائف .

وكان سفيان يذهب إلى هذا – قال : وهو مثل قوله فى دعائه « اللهم اشدد وطأتك على مُضَر ، وابعث عليهم سنينا كسنى يوسف ، فتتابع القحط عليهم حتى أكلوا القد والعظام .[٢]

٦ – ومما يظهر جهده رحمه الله تعالى من خلال منهجه فى (تأويل مختلف الحديث) مراجعة روايات الحديث عند غموض معناه ، والذى تولد عنه التناقض ، نرى ذلك فى المثال التالى :

(قالوا [٣] : حديث يكذبه العيان) .

رويتم عن أبى سعيد الخدرى ، وجابر بن عبد الله ، وأنس بن مالك أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : وذكر سنة مائة ، إنه لا يبقى على ظهرها يومئذ نفس منفوسة .

---

(١) أى أصحاب الكلام .
(٢) انظر (تأويل مختلف الحديث) ص١٩٩ بتصرف ، وراجع أيضا ص١١٠ من نفس المصدر .
(٣) أى أهل الكلام .

﴿٧٠﴾

قال أبو محمد [١] : إن هذا حديث قد أسقط الرُّوَاة منه حرفا [٢] ، إما لأنهم نسوه ، أو لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم أخفاه فلم يسمعوه ، ونراه – بل لا نشك – أنه قال : « لا يبقى على الأرض منكم يومئذ نفس منفوسة » يعنى ممن حضره فى ذلك المجلس ، أو يعنى الصحابة ، فأسقط الرواى (منكم) .

وهذا مثل قول ابن مسعود فى ليلة الجن « ما شهدها أحد منا غيرى » فأسقط الراوى (غيرى) ... ثم يقول رحمه الله – بعد أن يضرب أكثر من مثال يؤكد به هذا – وهذا هو ذاك الحديث وقع فيه الغلط ، واختلفت فيه الروايات .[٣]

كما يظهر هذا الجهد فى مواضع كثيرة [٤] من الكتاب ، فكأنه هنا بحث من يتصدى لإزالة ما ظاهره التناقض الرجوع إلى روايات الحديث – خاصة إذا كان الحديث من أحاديث الصحاح – ففى ذلك معين له على الوصول إلى الدلالة الصحيحة للحديث .

✪ ✪ ✪

٧ – ينبه رحمه الله تعالى إلى أن بعض الرواة يسمع ما لم يسمعه غيره فكل يروى ما عنده ، مما يسبب تارة التناقض الظاهرى بين بعض النصوص .

مثال :

يقول رحمه الله تعالى عند ذكرهم (أحاديث فى الصلاة متناقضة) :

وأما الحديث الثالث الذى ذكر فيه ابن عمر ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « لا تصلوا صلاة فى يوم مرتين ، فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم

---

(١) وهو ابن قتيبة رحمه الله تعالى .
(٢) أى كلمة .
(٣) انظر (تأويل مختلف الحديث) ص٩٣ ، ٩٤ بتصرف .
(٤) راجع على جهة المثال (التأويل) ص٩٦-١٠٢ ، ١٠٣-١٠٤ ، ٢٢٢-٢٢٣ .

قال : لا تصلوا فريضة فى يوم مرتين ، كأنك صليت فى منزلك الظهر مرة ، ثم صليتها مرة أخرى ، أوصليتها مع إمام ، ثم أعدتها مع إمام آخر .

فاستعمل ما سمع من هذا الحديث فى الموضع الذى أطلق فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يصلى الرجل ويجعله نافلة - ولعله لم يكن سمع هذا ولم يبلغه .

ومن صلى فى منزله الفريضة ، وصلى مع الإمام تلك الصلاة وجعلها نافلة، لم يصل صلاة فى يوم مرتين ، لأن هاتين صلاتان مختلفتان ، إحداهما فريضة ، والأخرى نافلة .[١]

وبهذه السلاسة ، والنقاش الهادئ ، يزيل ظاهر هذا التناقض ، ويرد شبهة المتكلمين ، الذين تكلفوا فى شبهتهم ، دون أن يتكفلوا التفكير فيها ، ومحاولة الوصول إلى ما وصل إليه ابن قتيبة رحمه الله تعالى بالرجوع إلى الروايات .

✪ ✪ ✪

٨ - ويلاحظ عليه رحمة الله تعالى حين يروى الأحاديث يتوقى فى روايتها تارة فيقول رحمه الله تعالى : « هذه الألفاظ أو نحوها » [٢] ، وتارة « أو كما قال[٣]»، وأخرى « أو كلاهما ، هذا معناه » [٤] .

وهذا ربما يرجع إلى روايته لبعض الأحاديث بالمعنى ، أو لمطلق التوقى مع الحفظ ، وأيما كان فإن هذا يدل على الورع والتقوى ، ومراعاة تحرى الدقة فى الرواية ، التى هى سمة أئمة أهل الحديث .

✪ ✪ ✪

(١) انظر (تأويل مختلف الحديث) ص٢٢٣ ، ٢٢٤ .
(٢) المصدر السابق ص١٠٠ .
(٣ ، ٤) المصدر السابق ص١٠٦ ، ١١١ .

﴿٧٢﴾

٩ – ومن منهج ابن قتيبة رحمه الله تعالى فى التوفيق بين النصوص القرآنية والأحاديث النبوية ، وفيما بين الأحاديث النبوية بعضها البعض والذى يظهر جهده واجتهاده فى خدمة السنة النبوية ، هذا المنهج يتمثل فى الاعتماد على المدلولات اللغوية للكلمة ، فيلتمس – كما يقول بعض الكتاب [١] – ذكر الأصل الدلالى للكلمة التى يفسرها الحديث ، الذى يحاول تأويله تأويلا يتسق مع معنى النص ، ويعضد ذلك بشواهد من كلام الله تعالى ، والحديث الشريف ، وكلام العرب مثلا ، وخطبا ، وشعرا ، ويشرح المفردات الغريبة فى الشواهد ، ويبين معناه ، ليدعم تفسيره ، ملتزما إشباع التفسير ، وإيراد الحجج أ. هـ .

مثال آخر : يشير رحمه الله تعالى فى هذا المثال إلى أمور معلومة لدى أهل اللغة كقوله : « وكلام العرب إيماء ، وإشارة وتشبيه » [٢] إشارة إلى أن هذا المثال يشير إلى المنهج المذكور لهّ ، فيطرح شبهتهم التناقض فى حديثين : قالوا : رويتم عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال (فى المسافر وحده شيطان ، وفى الاثنين شيطانان ، وفى الثلاثة ركب) .

ثم رويتم أن النبى صلى الله عليه وسلم كان يبرد البريد وحده ، وأنه خرج وأبو بكر ، مهاجرين .

قالوا : كيف يكون الواحد شيطانا إذا سافر ؟ ولا يخلوا أن يكون أراد بمنزلة الشيطان ، أو يتحول شيطانا ، وهذا لا يجوز .

فيجيب ابن قتيبة رحمه الله تعالى عن هذا بقوله : إنه أراد بقوله « المسافر وحده شيطان » معنى الوحشة بالانفراد ، وبالوحدة ، لأن الشيطان يطمع فيه ، كما يطمع فيه اللصوص ، ويطمع فيه السبع ، فإذا خرج وحده ، فقد تعرض للشيطان ،

(١) د. عمر مسلم العكن – مجلة منار الإسلام – العدد (١٠) السنة(٢٥) شوال ١٤٢٠هـ – يناير ٢٠٠٠م .
(٢) (تأويل مختلف الحديث) ص١٥٣ .

ولكل عادٍ عليه من السباع ، أو اللصوص ، كأنه شيطان . ثم قال (والإثنان شيطانان ، لأن كل واحد منهما متعرض لذلك فهما شيطانان ، فإذا تناموا ثلاثة ، زالت الوحشة ، ووقع الأنس ، وانقطع طمع كل طامع فيهم وكلام العرب إيماء وإشارة وتشبيه .

يقولون ، فلان طويل النجاد ، والنجاد حمائل السيف ، وهو لم يتقلد سيفا قط ، وإنما يريدون طويل القامة ، فيدلون بطول نجاده على طوله ، لأن النجاد القصير ، لا يصلح على الرجل الطويل .

ثم يقول رحمه الله : والله تعالى يقول فى كتابه ﴿ ما المسيح ابن مريم إلا رسول قد خلت من قبله الرسل وأمه صديقة كانا يأكلان الطعام ﴾ [١] فدلنا بأكلهما الطعام على معنى الحدث لأن من أكل الطعام ، فلابد له من أن يحدث ...

وأما قولهم : ، كان يبرد البريد وحده ، والبريد الرسول ، فإنه كان يبعثه من بلد إلى بلد وحده ويأمره أن ينضم فى الطريق ، إلى الرفيق يكون معهم ، ويأنس بهم ...

وأما خروج النبى صلى الله عليه وسلم مع أبى بكر حين هاجر ، فإنهما كانا فى ذلك الوقت خائفين على أنفسهما من المشركين ، فلم يجدا بداً من الخروج ، ولعلهما أمّلا أن يوافقا ركبا .... فلما أمكنهما أن يستزيدا فى العدد استأجر أبو بكر رضى الله عنه هاديا من بنى الديل ، واستصحب عامر بن فهيرة مولاه ، فدخلوا المدينة وهم أربعة أو خمسة .[٢]

ابن قتيبة رحمه الله تعالى نراه يفسر ويحلل كما سبق ، ويأتى بالأدلة التى تثبت صحة ما ذهب إليه .

✪ ✪ ✪

(١) سورة المائدة آية ﴿٧٥﴾ .
(٢) انظر (تأويل مختلف الحديث) ص١٥٣ - ١٥٥ بتصرف .

﴿٧٤﴾

مثال :

ومن ذلك تفسيره رحمه الله تعالى المسكنة باللين والتواضع وذلك لإزالة ما ظاهره التناقض فيما طرحوه بين « استعاذته » صلى الله عليه وسلم من الفقر وقوله (اللهم أحيني مسكينا ، وأمتني مسكينا واحشرني في زمرة المساكين) .

فيقول رحمه الله تعالى : ... ومعنى المسكنة في قوله (احشرني مسكينا) التواضع والإخبات كأنه سأل الله تعالى ، أن لا يجعله من الجبارين والمتكبرين ، ولا يحشره في زمرتهم ثم يقول رحمه الله :

والمسكنة حرف مأخوذ من (السكون) يقال (تمسكن الرجل) إذا لان وتواضع وخشع ، وخضع . ويستدل على هذا المعنى من قوله صلى الله عليه وسلم للمصلى « تبأس وتمسكن وتُقَنِّعْ رأسك » يريد : تخشع ، وتواضع لله عز وجل .

ويستدل بما عند العرب فيقول : والعرب تقول « بالمسكين نزل الأمر » لا يردون معنى الفقر إنما يروون معنى الذلة والضعف .

ثم يقول رحمه الله صراحة : ومن الدليل على ما أقول : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لو كان سأل الله عز وجل المسكنة ، التي هي الفقر ، لكان الله تعالى قد منعه ما سأله ، لأنه قبضه غنيا موسرا ، بما أفاء الله عز وجل عليه ، وإن كان لم يضع درهما على درهم ...[1]

وهكذا يقدم الدليل تلو الدليل حتى يثبت صحة رأيه ووجهة نظره ، لعلمه أن القائل رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي لا ينطق عن الهوى ، ويؤكد ذلك بقوله: ويأتيه جبريل عليه السلام بالسنن ، كما كان يأتيه بالقرآن ، ولذلك قال « أوتيت الكتاب ومثله معه » يعني من السنن .[2]

(١) المصدر السابق ص١٥٦ - ١٥٩ .
(٢) المصدر السابق ص١٥٥ .

﴿٧٥﴾

ولهذا يبذل غاية الجهد فى درء كل ما من شأنه أن ينال صرح السنة النبوية الشريفة .

- وقد يلجأ رحمه الله تعالى إلى القول بأن الحديث خرج مخرج الكناية وذلك مثل ما جاء فى إزالة التشبيه الذى أشار إليه أهل الكلام فى حديث (لا تسبوا الريح فإنها من نَفَس الرحمن) حيث قال : إنه لم يرد بالنفس ما ذهبوا إليه [١] ، وإنما أراد أن الريح من فرج الرحمن - عز وجل - ورَوْحه . وكذلك قوله (إنى لأجد نَفَسَ ربكم من قِبَل اليمن) وهذا من الكناية .[٢]

- ونحو هذه البلاغة ما جاء عند كلامه عن حديث أبى هريرة عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال قال الله عز وجل (من تقرب إلىّ شبرا تقربت منه ذراعا .... الحديث) فإن ابن قتيبة رحمه الله يقول : إن هذا تمثيل وتشبيه ، وإنما أراد من أتانى مسرعا بالطاعة ، أتيته بالثواب أسرع من إتيانه ، فكنى عن ذلك بالمشى والهرولة .[٣]

- ومن ذلك أيضا ما جاء عند حديث (الحياء شعبة من الإيمان) وقولهم : والإيمان اكتساب ، والحياء غريزة مركبة فى المرء فكيف تكون الغريزة اكتسابا ؟ فيقول رحمه الله : إن المستحى ينقطع بالحياء عن المعاصى ، كما ينقطع بالإيمان عنها فكأنه شعبة منه . والعرب تقيم الشئ مقام الشئ ، إذا كان مثله ، أو شبيها به، أو كان سببا له . ألا تراهم سموا الركوع والسجود صلاة ؟ وأصل الصلاة الدعاء وسموا الدعاء صلاة ، كما قال تعالى ﴿ وصل عليهم ﴾ [٤] أى أدع لهم ، وقال تعالى : ﴿ لولا دعاؤكم ﴾ [٥] أى لولا صلاتكم فلما كان الدعاء يكون فى الصلاة سميت به .[٦]

---

(١) وهو قولهم : ينبغى أن تكون الريح عندكم غير مخلوقة لأنه لا يكون من الرحمن جل وعز شئ مخلوق . انظر المصدر السابق ص١٩٨ .
(٢) المصدر السابق ص١٩٨ بتصرف .
(٣) المصدر السابق ص٢٠٩ بتصرف .
(٤) سورة الفرقان الآية ﴿ ٧٧ ﴾ .
(٥) سورة التوبة آية ﴿ ١٠٣ ﴾ .
(٦) راجع تأويل مختلف الحديث ص٢٢٠ ، ٢٢١ .

﴿٧٦﴾

– والحق أنه بذلك يشير إلى كثير من أبواب البلاغة والبيان فى كتاب الله تعالى وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم التى تفصل وتبين مع البلاغة والفصاحة أيضا ونرى ذلك حين يقول فى بعض المواضع [١] :

إن كتاب الله تعالى : يأتى بالإيجاز والاختصار ، وبالإشارة والإيماء ، ويأتى بالصفة فى موضع ، ولا يأتى بها فى موضع آخر ، فيستدل على حذفها من آخر المكانين بظهورها فى المكان الآخر ، وحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم مبين لكتاب الله ، ودال على ما أريد فيه .

فعلى هذا ينبه من يجد شيئا مما ظاهره التناقض فى حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم – كما سبق التنبيه – أن يكون عالما بأبواب البلاغة والبيان ، وأن يكون فطنا لمدلولات الأحاديث ، فمن المستبعد تماما أن يكون فى كلامه عليه الصلاة والسلام تناقضا أو اختلافا .

ومما يؤكد سعة علم ابن قتيبة رحمه الله تعالى باللغة وجهده فى استخدام هذا العلم فى : « تأويل مختلف الحديث » ما قاله بعض المعاصرين [٢] ، وقد يذهب ابن قتيبة إلى تفسير معنى الكلمة ، ملتمسا سبب التسمية مبينا أصلها المعنوى ، واشتقاقها اللغوى ويضرب مثلا على ذلك بتفسيره كلمة (الفواسق) فى حديث النبى صلى الله عليه وسلم (خمس من الفواسق يقتلن فى الحل والحرم الغراب والحدأة والكلب والحية والفأرة)[٣] ويبين أيضا أن ابن قتيبة قد أقر بوقوع المشترك اللفظى ، ويذكر أكثر من معنى للفظ الواحد ، ويرى أن المعنى الواحد يحدده سياق الحديث .

---

(١) المصدر السابق ص٢٢٨ ، ٢٣٠ وراجع أيضا ص٢٣٩ ، ٢٤٦ ، ٣١٣ ، ٢٥٧ وغيرها من المواضع .
(٢) د. عمر العكش ، مجلة المنار ، مرجع سابق .
(٣) انظر (تأويل مختلف الحديث) ص٩٣ .

فهذه الثقافة اللغوية ، والمعرفة بأسرار اللغة كان مستندا فى رده على خصومه ، بدلالة اللفظ تتطور من الحقيقة إلى المجاز .

كما يذكر أن ابن قتيبة أقرّ بوقوع المجاز فى القرآن الكريم والحديث الشريف، وتصدى للذين أنكروا وقوعه فيهما ، كما تصدى للذين أنكروا بعض الحقائق وصرفوها إلى المجاز متأولين بعض الآيات القرآنية والأحاديث الشريفة تأويلا يتناسب ومذهبهم ومعتقدهم وأفكارهم ، على الرغم من أن ابن قتيبة لم يذكر تعريفا عاما للمجاز ، فإنه قد وضحه بشرح الشواهد ، وبيان المراد منها دون أن يبين لنا نوع هذا المجاز .

وقد يكون له العذر فى ذلك لأن المصطلحات البلاغية لم تكن محددة ومعروفة بالصورة التى وردت فى كتب البلاغيين المتأخرين ، ولم ينهج منهجا نظريا ، وإنما التزم المنهج التطبيقى ، وأكثر من الشواهد العربية من القرآن الكريم ، والحديث الشريف ، والشعر العربى ، والأمثال السائرة لتتضح فكرة المجاز ، وتتسع دائرة التفسير .

وقد يتوسع فى دائرة التفسير ويشرح المفردات الغريبة ، التى ترد فى الشواهد التى يعضد بها رأيه ، ويشير إلى المفرد من صيغة الجمع السماعية ، ويفسره ويدعم تفسيره بشاهد آخر .[١]

وتدلنا هذه الأقوال على قوة دفاعه عن الحديث النبوى ، ويصير بحق لسان أهل السنة وحامل لواء الحوار والمنافحة عنهم ، وهذا شيمة العقلاء المخلصين للحق وأهله رحمه الله تعالى .

✪ ✪ ✪

(١) راجع (مجلة المنار) ص٧٢-٧٥ مرجع سابق .

١٠ – ومن جهوده رحمه الله تعالى فى السنة النبوية ، ما نراه فى سعة علمه بقواعد الحديث ومصطلحاته ، والذى يبينه بوضوح ما جاء فى كتابه الذى نحن بصدده (تأويل مختلف الحديث) والذى يتمثل فى حكمه على كثير من الأحاديث ونقده لها ، وبيان الفرق بين قول النبى والصحابى ، والكلام على الحديث الموضوع ومن أمثلة ذلك :

قوله عند حديث سحر النبى صلى الله عليه وسلم : وقد روى ابن نمير ، عن هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة رضى الله عنها وهذا طريق مرضى صحيح أنه قال : – حين سحر – جاءنى رجلان فجلس أحدهما عند رأسى ، والآخر عند رجلى فقال أحدهما : ما وجع الرجل ؟ قال : مطبوب .[1] فقال : من طبه ؟ قال : لبيد بن الأعصم قال : فى أى شئ ؟ قال : فى مشط ومشاطة ، وجُفّ طلعة ذَكَرٍ . قال : وأين هو ؟ قال : فى بئر ذى أوران » .[2]

فقد قال : عن هذا الحديث : وهذا طريق مرضى صحيح .

ثانى الأمثلة :

يقول رحمه الله تعالى فى حديث رواه حماد بن سلمة عن عمار بن أبى عمار عن أبى هريرة ، عن النبى صلى الله عليه وسلم أن موسى عليه السلام لطم عين ملك الموت ، فأعوره .

ونحن نقول : إن هذا الحديث حسن الطريق عند أصحاب الحديث ، وأحسب له أصلا فى الأخبار القديمة ، وله تأويل صحيح لا يدفعه النظر .

ثالث الأمثلة :

فى هذا المثال يحكم بالوضع على رواية ثم يذكر طائفة من الأسباب التى

(١) انظر (تأويل مختلف الحديث) ص١٦٨ بتصرف .
(٢) المصدر السابق ص٢٥٦ . بتصرف .

يرجع إليها الوضع فى الحديث النبوى ، يأتى ذلك عند رده ما جاء عن (عوج ابن نوح) والذى جاء فيه (أن عوجا اقتلع جبلا ، قدره ، فرسخ فى فرسخ على قدر عسكر موسى ، فحمله على رأسه ليطبقه عليهم ، فصار طوقا فى عنقه حتى مات ، وأنه كان يخوض البحر ، فلا يجاوز ركبتيه ... الخ) .

فيقول رحمه الله تعليقا على ذلك :

« ونحن نقول : إن هذا حديث لم يأت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولا عن صحابته ، وإنما هو خبر من الأخبار القديمة ، التى يرويها أهل الكتب ، سمعه قوم منهم على قديم الأيام ، فتحر ثوابه .

ثم يقول : والحديث يدخله الشوب والفساد ، من وجوه ثلاثة :

منها : الذنادقة وإجتيالهم للإسلام وتهجينه بدس الأحاديث المتشنعة والمستحيلة ، مع أشياء كثيرة ، ليست تخفى على أهل الحديث .

- ثم يذكر بعض أسماء الوضاعين - منهم ابن أبى العوجاء الذنديق ، وصالح بن عبد القدوس الدهرى .

والوجه الثانى : القصاص على قديم الأيام ، فإنهم يُميلون وجوه العوام إليهم ويستدرون ما عندهم بالمناكير ، والغريب ، والأكاذيب من الأحاديث ، ومن شأن العوام ، والقعود عند القاص ، ما كان حديثه عجيبا ، خارجا عن فطر العقول ، أو كان رقيقا يحزن القلوب ، ويستغزر العيون .

والوجه الثالث : الذى يقع فيه فساد الحديث فأخبار متقادمة كان الناس فى الجاهلية يروونها ، تشبه أحاديث الخرافة كقولهم : إن الضب كان يهوديا عاقا فمسخه الله تعالى ضبا ، ولذلك قال الناس : « أعق من ضب » .

---

(١) انظر المصدر السابق ص٢٥٨ - ٢٦٤ بتصرف .

ففى هذا القول نجد أنه لا يكتفى بإزالة ما ظاهره التناقض ولكن يتحين المناسبة لكى يضع القواعد التى ينبغى التنبه إليها للتفرقة بين الأحاديث التى يحتج بها والتى لا يحتج بها ، والتى يمكن أن يصح القول بأن ظاهرها التعارض فالقوا الكاذب كما لا يحتج به ، فهو أيضا لا يشكل قيمة فى تعارضه فهو حتما – لأنه كاذب – لن يكون متوافقا مع صدق الوحى المتلو وغير المتلو .

رابع الأمثلة :

يظهر من هذا المثال إشارته – رحمه الله تعالى – إلى تعدد طرق الحديث فائدتها فى تقوية الأحاديث وهو ما استقر عليه أقوال العلماء فى عصورنا . نجد ذلك يرد عندما يذكر المعارضون ما جاء عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : ترون ربكم يوم القيامة كما ترون القمر ليلة البدر ، لا تُضلّون فى رؤيته) وتعارضه مع قوله تعالى ﴿ لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار وهو اللطيف الخبير ﴾ [1] فيقول رحمه الله تعالى : ونحن نقول : إن هذا الحديث صحيح ، لا يجوز على مثله الكذب ، لتتابع الروايات عن الثقات به من وجوه كثيرة . [2] وهذه قاعدة هامة يؤسسها ضمن علماء عصره ، لا يستغنى عنها خاصة عند الترجيح بين الروايات ، وإزالة التعارض بين الروايات .

خامس الأمثلة :

نقده رحمه الله تعالى لإسناد الحديث فيقول عن حديث أبى رزين العقيلى من رواية حماد بن سلمة أنه قال للنبى صلى الله عليه وسلم : أين كان ربنا قبل أن يخلق السموات والأرض ؟ فقال : وكان فى عماء ، فوقه هواء ، وتحته هواء ، قالوا – أى المعارضين – وهذا تحديد وتشبيه .

---

(١) سورة الأنعام آية ﴿ ١٠٣ ﴾ .
(٢) انظر (تأويل مختلف الحديث) ص٦٩١ بتصرف وانظر أيضا ص٨٤ .

قال رحمه الله تعالى : ونحن نقول إن حديث أبى رزين هذا ، مختلف فيه ، وقد جاء من غير هذا الوجه بألفاظ تستشنع أيضا ، والنقلة له أعراب ، ووكيع بن حرس الذى روى عنه حديث حماد بن سلمة أيضا ، لا يعرف .(١)

وكذلك أيضا ما جاء عند حديث القرود – وهو : أن قروداً رجمت قردة فى زنا – حيث يقول : إن حديث القرود ليس عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولا عن أصحابه ، وإنما هو شئ ذكر عن عمرو بن ميمون .

حدثنى محمد بن خالد بن خداش ، قال : نا مسلم بن قتيبة ، عن هشيم عن حصين ، عن عمرو بن ميمون قال : زنت قِرْدة فى الجاهلية ، فرجمتها القرود ، ورجمتها معهم .(٢)

وهو بهذه الرواية يؤكد بطلان ما زعموا من رفع هذا الأثر ، ولكنه يشير أولا أنه ليس عن النبى صلى الله عليه وسلم ، ولا عن أحد من أصحابه ، ثم يعبر بصيغة التضعيف (شئ يذكر) عن عمرو بن ميمون .

وزاد الأمر تأكيدا بأن الأثر موجود عنده ، وهو موقوف على عمرو بن ميمون ولفظ (عن) هذه ليست نصا فى اتصال الاسناد ، على ما هو معلوم عند أهل الحديث .

✪ ✪ ✪

١١ – ومن خلال هذا التوفيق بين النصوص ، تظهر آراءه رحمه الله تعالى فى بعض المسائل ، فنراه يصرح بأن السنة قاضية على الكتاب ، وتارة يقدم الإجماع على الرواية . فمن الأول : ما جاء عند التوفيق بين ما رواه المعارضون : أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : ترون ربكم يوم القيامة كما ترون القمر ليلة

(١) المصدر السابق ص٢٠٧ بتصرف .
(٢) المصدر السابق ص٢٧٣ بتصرف .

البدر ، لا تُضامُون فى رؤيته ، . والله تعالى يقول : ﴿ لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار ﴾ .(١)

فيقول رحمه الله تعالى أن هذا الحديث صحيح لايجوز على مثله الكذب ، لتتابع الروايت عن الثقات به من وجوه كثيرة ... وحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم قاض على الكتاب ومبين له ، فلما قال الله تعالى ﴿ لا تدركه الأبصار ﴾ وجاء عن رسول الله صلى الله عليه وسلم بالصحيح من الخبر (ترون ربكم تعالى فى القيامة) لم يخف على ذى فهم ونظر ولب وتمييز أنه فى وقت دون وقت .

وفى قول موسى عليه السلام ﴿ رب أرنى انظر إليك ﴾ (٢) أبين الدلالة على أنه يرى يوم القيامة ، ولو كان الله تعالى لا يرى فى حال من الأحوال ، ولا يجوز عليه النظر ، لكان موسى عليه السلام قد خفى عليه من وصف الله تعالى ما علموه .(٣)

ويؤكد رحمه الله تعالى صحة الخبر وأن الرؤية بصيرية وليست علمية بقوله: وقرأت فى الإنجيل أن المسيح عليه السلام حين فتح فاه بالوحى قال : « طوبى للذين يرحمون ، فعليهم تكون الرحمة ، طوبى للمخلصة قلوبهم ، فإنهم الذين يرون الله تبارك وتعالى ، والله تبارك وتعالى يقول ﴿ وجوه يومئذٍ ناضرة إلى ربها ناظرة ﴾ (٤) .

ويقول فى قوم ، سخط عليهم ﴿ كلا إنهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون ثم إنهم لصالوا الجحيم ﴾ (٥) ، أفما هذا القول ، دليل على أن الوجوه الناضرة ، التى هى إلى ربها ناظرة ، هى التى لا تحجب إذا حجبت هذه الوجوه ؟ (٦) .

---

(١) سورة الأنعام ﴿ ١٠٣ ﴾ .
(٢) سورة الأنعام ﴿ ١٠٣ ﴾ .
(٣) انظر (تأويل مختلف الحديث) ص١٩١ - ١٩٣ بتصرف .
(٤) سورة القيامة الآية ﴿ ٢٢ ﴾ .
(٥) سورة المطففين آية ﴿ ١٥ ﴾ .
(٦) انظر (تأويل مختلف الحديث) ص١٩٤ بتصرف .

ونراه رحمه الله تعالى من خلال هذه النصوص يجعل ما ورد عن الأنبياء حجة مبينة لكلام الله تعالى ، ومفسرة له ، فلا تظن به أنه يرجح السنة ، أو يقدمها على كتاب الله تعالى فإن عبارته - رحمه الله - عقب قوله : السنة قاضية على الكتاب . يقول (ومبينة له) .

ويؤكد هذا المعنى ما جاء عنه في موضع آخر من قوله : « وقد روى عيسى ابن يونس عن الأوزاعي ، عن يحيى بن أبي كثير أنه قال : السنة قاضية على الكتاب ، وليس الكتاب بقاض على السنة ، أراد : أنها مبينة لكتاب ، منبئة عما أراد الله تعالى فيه [1] .

وعلى هذا المعنى الذى حدده ينبغى أن يفهم قوله ، فهو يعرف للكتاب الكريم مكانته ، وللسنة مكانتها .

ومن الثانى : وهو تقديمه الإجماع على الرواية فإنه يفعل ذلك مبينا علة ما ذهب إليه ، وذلك عندما قال المعارضون : « أحاديث يخالفها الإجماع » رويتم عن أيوب عن ابن سيرين عن عمرو بن وهب الثقفى ، عن المغيرة بن شعبة : أن النبى صلى الله عليه وسلم تبرز لحاجته ، فأتبعه بالماء ، فتوضأ ومسح على عمامته ، ثم صلى الغداة .

ورويتم عن أبى معاوية ، عن الأعمش عن الحكم ، عن عبد الرحمن بن أبى ليلى ، عن كعب بن عجرة ، عن بلال : أن النبى صلى الله عليه وسلم مسح على الخمار .

ورويتم عن الوليد بن مسلم ، عن الأوزاعى ، عن يحى بن أبى كثير ، عن أبى سلمة بن عبد الرحمن عن عمرو بن أمية الضمرى قال : رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم توضأ فمسح على العمامة .

---

(١) المصدر السابق ص١٨٦ .

قالوا – أى المعارضون – وهذه طرق جياد عندكم ، وقد تركتم العمل بها ، من غير أن تَرْوُوا لذلك عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ناسخا .

قال أبو محمد : ونحن نقول : إن الحق يثبت عندنا بالإجماع ، أكثر من ثبوته بالرواية » .

– وهنا يذكر علة هذا الرأى – (فيقول) : « لأن الحديث قد تعترض فيه عوارض من السهو والإغفال ، وتدخل عليه الشبه ، والتأويلات والنسخ ، ويأخذ الثقة عن غير الثقة ، وقد يأتى بأمرين مختلفين وهما – جميعا – جائزان ، كالتسليمة الواحدة والتسليمتين .

وقد يحضر الأمْرَ – يأمر به النبى صلى الله عليه وسلم – رجلٌ ثم يأمر بخلافه ولا يحضره هو فينقل إلينا الأمر الأول ، ولا ينقل إلينا الثانى لأنه لم يعلمه » .

ويواصل رحمه الله تعالى بيان علة هذا الرأى فيقول :

« والإجماع سليم من هذه الأسباب كلها ، ولذلك كان مالك رحمه الله ، يروى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم الحديث ثم يقول : « والعمل ببلدنا ، على كذا » لأمر يخالف ذلك الحديث ، لأن بلده بلد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وإذا كان العمل فى عصره على أمر من الأمور ، صار العمل فى العصر الثانى عليه ، وكذلك فى العصر الثالث والرابع وما بعده » .

وهذا العرض منه لوجهة نظره تفيد ، بأن عمله لم يكن عشوائيا وإنما قائم على أسس منها ما درج عليه بعض العلماء كما يؤكد ذلك بقول الإمام مالك رحمه الله .

ولا أحسب إلا أنه يقصد بذلك نوع من أحاديث الأحاد كالحسن لغيره

. (١) انظر المصدر السابق ص٢٤١ وما بعدها بتصرف .

ونحوه ، ولكن كما نرى فى الأمثلة السابقة أن الحديث إذا صح عنده لا يَحِدْ عنه ولا يحاول أن ينفى شيئا منه ، إنه يحتج برواية عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده [١] ، فى مسألة دقيقة تتصل بكتاب الله عز وجل ، ورواية عمرو بن شعيب هذه من العلماء من يجعلها فى درجة الحسن إذا صح باقى إسنادها ، بل بعض العلماء لهم عليها مآخذ ، فى اتصالها أو عدم اتصالها .

وفى كل ذلك يظهر واضحا جهد الإمام ابن قتيبة الدينورى رحمه الله تعالى فى هذا العمل – تأويل مختلف الحديث – ومدى ما بذل فيه من جهد ليضع قواعد وقوانين للمعارضين ، لو أنهم فقهوا ما فيها لعادوا إلى الحق والصواب .

كما أن هذه القواعد والقوانين التى ضمّها هذا المؤلف القيم ، ينبغى على المحدثين فى كل عصر أن يقتدوا بها فى مؤلفاتهم وشروحهم فى مجال السنة النبوية ، خاصة فى الكلام على مختلف الحديث .

فالإمام النووى يراه من أهم الفنون فيقول : « معرفة مختلف الحديث وحكمه، هذا فن من أهم الأنواع ، ويُضْطَرُّ إلى معرفته جميع العلماء من الطوائف، وهو أن يأتى حديثان متضادان فى المعنى ظاهرا ، فيوفق بينهما ، أو يرجح أحدهما ، وإنما يكمل له الأئمة الجامعون بين الحديث ، والفقه ، والأصوليون الغواصون على المعانى » .[٢]

وفى عبارة الإمام النووى نرى رفعة مقام ابن قتيبة رحمه الله تعالى فى هذا العلم ، حيث قام بتأليف هذا المجلد الطيب الذى أظهر فيه براعة فى الرد على خصومه ، كما ضمنه طائفة من قواعد الحديث وقوانين سبق بها غيره ، فالقاضى أبو محمد الرامهرمزى ت (٣٦٠)هـ ينسب إليه أول من كتب فيه علوم الحديث على جهة الاستقلال ، ولا شك أنه استفاد ممن تقدمه كابن قتيبة رحمه الله وغيره .

---

(١) انظر المصدر السابق ص٢٤٠ .
(٢) انظر متن (تدريب الراوى) جـ٢ ص١٩٦ .

﴿٨٦﴾

المبحث الثالث

بيان جهود ابن قتيبة
من خلال كتابه القيم [غريب الحديث]

* تمهيد :

معرفة غريب الحديث من المهمات للمحدث ، والمفسر والفقيه وكل متعرض لعلم الشريعة ، ويعرفه ابن الصلاح بقوله : هو عبارة عما وقع فى متون الأحاديث من الألفاظ الغامضة البعيدة عن الفهم لقلة استعمالها .(١) ثم يبين مكانة هذا العلم فيقول : هذا فن مهم يقبح جهله بأهل الحديث خاصة ، ثم بأهل العلم عامة ، والخوض فيه ليس بالهين ، والخائض فيه حفيف بالتحرى جدير بالتوقى – ثم ينقل باسناده عن الميمونى – قال : سئل أحمد بن حنبل عن حرف من غريب الحديث ، فقال : سلوا أصحاب الغريب ، فإنى أكره أن أتكلم فى قول رسول الله صلى الله عليه وسلم بالظن فأخطئ .(٢) ولأهمية هذا العلم صنف فيه طائفة من العلماء ذكر الإمام الكتانى منها نحوا من ست عشرة كتابا ، ثم قال : (وكتب الغريب كثيرة أيضا) (٣) .

ونوه الشيخ طاهر الجزائرى بهذا العلم فى ذكر النوع الثانى والعشرين من علوم الحديث فقال : هذا النوع منه فى معرفة الألفاظ الغريبة فى المتون . وهذا علم قد تكلم فيه جماعة من أتباع التابعين ، منهم مالك والثورى وشيبة فمن بعدهم، وأول من صنف الغريب فى الإسلام النضر بن شميل له فيه كتاب ، ثم صنف فيه أبو عبيدة القاسم بن سلام كتابه الكبير .(٤)

---

(١) انظر : مقدمة ابن الصلاح ص٢٧٤ وما بعدها .
(٢) المرجع السابق ص٢٧٥ .
(٣) انظر (الرسالة المستطرفة) للكتانى ص١١٦-١١٨ . ط دار الكتب العلمية – بيروت لبنان .
(٤) انظر : توجيه النظر إلى أصول الأثر ص١٧٩ ط دار المعرفة بيروت لبنان .

ومعرفة غريب الألفاظ بشكل عام كان من المهمات عند أهل اللغة كما كان عند علماء الحديث ، فألفوا معاجم اللغة ، واستمر الاهتمام بذلك قرونا متوالية ، حتى أنشئ مجمع اللغة العربية عام ١٩٣٤ ونص فى مرسوم إنشائه على أن من أهم أغراضه المحافظة على سلامة اللغة .[١]

ويزداد بيان أهمية هذا العلم - غريب ألفاظ الحديث - بما أورده الإمام الصنعانى فى كتابه (توضيح الأفكار) حيث قال :

« غريب ألفاظ الحديث ... فهو ما يخفى من ألفاظ المتون ، ولو كانت متواترة ، ولذا أضافه المصنف [٢] إلى الألفاظ ، ووجه غرابته قلة استعماله ، بحيث يبعد فهمه ويحتاج إلى التفتيش عنه من كتب اللغة ، ولعله فى عصره صلى الله عليه وسلم وحين تكلمه به لم يكن غريبا ، إنما تطاولت الأزمنة واختلطت الألسنة صار غريبا (ومن علوم الحديث معرفة غريب ألفاظه) إذ لا يتم فهم معناه حتى يعرف ويبحث عنه ، وقد صنف فيه جماعة من الأئمة » - وبعد أن يذكر عدداً ممن كتبوا فيه ينقل عن السيوطى قوله - « وقد وصى زين الدين فى العناية بالغريب ومعرفته ، وذكر ما وقع من التصحيف بسبب عدم العناية به أو تقليد من لا يقلد فيه » [٣] .

ويعلق على ذلك فضيلة الشيخ محمد محى عبد الحميد بقوله :

« والمراد بغريب الحديث هنا ما وقع فى متون الأحاديث من الألفاظ الغريبة عن أذهان الذين بَعُدَ عهدهم بالعربية الخالصة ، ومعرفة ذلك والتدقيق فى البحث

---

(١) راجع : تصدير « المعجم الوسيط » ص٥ .
(٢) يقصد العلامة النظار محمد بن ابراهيم الوزير الحسنى اليمنى الصنعانى المتوفى ٨٤٠هـ فى كتابه (تنقيح الأنظار) انظر تحقيق الشيخ محمد محى الدين عبد الحميد على كتاب الصنعانى ص٣ ، ٤ .
(٣) انظر « توضيح الأفكار لمعانى تنقيح الأنظار » للعلامة الصنعانى ص٤١٢ ، ٤١٣ بتصرف .

﴿٨٨﴾

عنه من أوائل ما ينبغى لطالب الحديث النبوى ، فإن تفسير الكلمة من كلامه ليس كتفسير أى كلام صادر عن أى إنسان ، لما يتعلق بمعنى كلامه من الأحكام الدنيوية والدينية ، ولهذا كان كثير من الأئمة الفحول يتحرجون من تفسير كلام الرسول صلى الله عليه وسلم : روى عن أحمد رضى الله عنه أن سئل عن حرف من الغريب فقال ، سلوا أصحاب الغريب ، فإنى أكره أن أتكلم فى حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم بالظن ، وأفضل تفسير الغريب ما كان عن رواية أخرى من الحديث ، أو ما كان منقولا عن أحد الصحابة رضى الله عنهم أجمعين ، .[1]

ومن دلالات هذه الأقوال يتبين لنا أهمية هذا العلم ، كما يتضح أنه لا يقدم عليه إلا من كان فحلا من فحول العلماء فى هذا الفن ، ولا ريب أن العلامة ابن قتيبة كان أحدهم بما ألف فيه .

ولا يخفى أن ذلك كله خدمة لشرع الله تعالى ودينه فى أصليه الشريفين (كتاب الله تعالى وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم) اللذين نزلا باللغة العربية ، **وفيما يلى نلقى الضوء على جهد الإمام ابن قتيبة وكتابه (غريب الحديث) الذى يشير بوضوح إلى مزيد علمه ، وسعة باعه فيه :**

إنه يفتتح هذا الكتاب القيم بالائمة على طالب العلم الذى انصب جل اهتمامه على جمع الرواية دون التفقه فيها ، والطرق دون المتون ، والغرائب دون السنن ، والاستكثار من أسماء الرجال حتى يعود كما بدأ لم يحل مما طلب إلا بأسفار حملها، ولم ينفعه علمها ، ونجده فى هذه الافتتاحية يورد بعضا من الأحاديث التى تشتمل على غرائب الألفاظ فيقول رحمه الله تعالى :

، وقد كان تعرف هذا – أى غرائب الألفاظ – وأشباهه عسيراً فيما مضى ، على من طلبه لحاجته إلى أن يسأل عنه أهل اللغة ، ومن يكمل منهم ليفسر غريب

(١) هامش المرجع السابق ص٤١٢ .

الحديث ، وفتق معانيه ، وإظهار غوامضه قليل ، فأما زماننا هذا فقد كفى حملة الحديث فيه مؤنة التفسير والبحث بما ألفه أبو عبيد القاسم بن سلام ، ثم بما ألفناه فى هذا بحمد الله . (١) ثم نجده رحمه الله تعالى يبين من خلال المقدمة سبب تصنيفه لهذا الكتاب فيقول :

« وقد كنت زمانا أرى أن كتاب أبى عبيد قد جمع تفسير غريب الحديث ، وأن الناظر فيه مستغن به ، ثم تعقبت ذلك بالنظر والتفتيش والمذاكرة ، فوجدت ما تركه نحوا مما ذكره أو أكثر منه .

ويذكر رحمه الله منهجه العام فى الكتاب فيقول :

« فتتبعت ما أغفل وفسرته على نحو مما فسر بالإسناد لما عرفت إسناده ، والقطع لما لم أعرفه ، وأشبعت ذلك بذكر الاشتقاق والمصادر والشواهد من الشعر » . (٢)

ثم يشير رحمه الله إلى أمر زائد عن منهج أبى عبيد القاسم فقد كره أن يكون الكتاب مقصورا على الغريب حيث أودعه من قصار أخبار العرب وأمثالها ، وعلته فى ذلك كثرة فائدة الكتاب ، وإمتاع قارئه ويكون عوْنًا على معرفته وتحفُّظه .

أما عن جهة الاتفاق والاختلاف بينه وبين أبى عبيد فيظهر من قوله :

« ولم أعرض لشئ مِمَّا ذكره أبو عُبَيْد إلا أحاديث وقع فيها ذلك ، فنبَّهْتُ عليه ، ودللت على الصَّواب فيه ، وأفردت له كتاب يدعى : كتاب « اصلاح الغلط » ، وإلا حروفا تعرض فى باب ، ولا يعمل ذلك الباب إلا بذكرها ، فذكرتها بزيادة فى التفسير والفائدة ، ولن يخفى ذلك على من جمع بين الكتابين » . (٣)

---

(١) انظر (غريب الحديث) جـ١ ص٥ .
(٢) المصدر السابق جـ١ ص٥ بتصرف .
(٣) المصدر السابق جـ١ ص٦ .

﴿٩٠﴾

تعدد نسخ الكتاب (غريب الحديث) ومراحل كتابته :

يشير رحمه الله تعالى إلى تعدد نسخ الكتاب ، والسبب فى هذا التعدد فى المقدمة ، فيرجع – الإمام ابن قتيبة – ذلك إلى مسارعة طلاب العلم إلى نسخ وكتابة ما فرغ منه أول بأول قبل الانتهاء منه تماما ، وأنه قام بعد الانتهاء منه بتنسيقه مرة أخرى ، شأن العلماء المدققين ، فقدم ما رأى حقه التقدم ، وأخر ما حقه أن يؤخر ، وأضاف ما عرض له من الأحاديث ، وجعله فى كتاب منفرد ثم قام بدمجه مع الأصل ويتضح كل ذلك من قوله :

« وكنت حين ابتدأت فى عمل الكتاب اطلعت عليه قوما من حَمَلَة العلم والطالبين له ، وأعجلتهم الرغبة فيه ، والحرص على تدوينه عن انتظار فراغى منه ، وسألوا أن أخرج لهم من العمل ما يرتفع فى كل أسبوع ، ففعلت ذلك ، حتى تم لهم الكتاب وسمعوه وحمله قوم منهم إلى الأمصار ، ثم عرضت بعد ذلك أحاديث كثيرة فعملتُ بها كتابا ثانيا يدعى كتاب (الزاوئد فى غريب الحديث) ، ثم تدبرت الكتابين فرأيت الأصوب فى الرأى أن أجمعهما وأقدِّم ما سبيله أن يقدم وأوخِّر ما سبيله أن يؤخَّر ، وأحذف ما سبيله أن يحذف ، فمن رأى ذيتك الكتابين على غير تأليف هذا الكتاب فليعلم أنها شئ واحد ، وأن الاختلاف بينهما هو بتقديم وتأخير ومكرر من التفسير .»[1]

* ترتيب مواد الكتاب (غريب الحديث) :

إن ترتيب المسائل العلمية فى مؤلَّف ، يدل على فكر صاحبها ، ومدى تمكنه من ترتيب أفكاره ، وهضمه لتلك المسائل ، ومقدار إحاطته ، وسعة علمه بها – هذا وأكثر منه نراه فى كتاب (غريب الحديث) لابن قتيبة ، منبها على نبوغه ،

(١) المرجع السابق جـ١ ص٦ .

واتقانه ، وجهده الفائق فى حسن الإنجاز يتضح ذلك من خلال ما يقوله فى ترتيب مواد كتابه فيما يلى :

« ورأيت أن أفتح كتابى هذا بتبيين الألفاظ الدائرة بين الناس فى الفقه وأبوابه ، والفرائض وأحكامها ، لتُعْرَف من أين أخذت تلك الحروف ، فيستدل بأصولها فى اللغة على معانيها ، كالوضوء والصلاة ، والزكاة والأذان والصيام والعتاق والطلاق والظهار والدبير [١] وأشباهها مما لا يكمل علم المتفقه والمفتى إلا بمعرفة أصوله .

– ثم اتبعت بعد ذلك تفسير ما جاء فى الحديث من ذكر القرآن وسوره وأحزابه ، وسائر كتب الله .

– ثم ما جاء فى الحديث والكتاب من ذكر الكافرين والظالمين والفاسقين والمنافقين والفاجرين والملحدين ، ومن أين أخذ كل اسم منها ؟ ثم ما جاء فى الحديث من ذكر أهل الأهواء الرافضة والمرجئة والقدرية والخوارج .

– ثم ابتدأت بتفسير غريب حديث النبى صلى الله عليه وسلم وضمنته الأحاديث التى يُدَعى بها على حملة العلم حمل المتناقض ، وتلوته بأحاديث صحابته رجلا رجلا ، ثم بأحاديث التابعين ومن بعدهم .

– وختمت الكتاب بذكر أحاديث غير منسوبة سمعت أصحاب اللغة يذكرونها، لا أعرف أصحابها ولا طرقها ، حسنة الألفاظ لطاف المعانى ، تضعف على الأحاديث التى ختم بها أبو عبيدة كتابه أضعافا ، وأرجو أن لا يكون بقى بعد هذين الكتابين من غريب الحديث ما يكون لأحد فيه مقال » . أ. هـ .[٢]

– ويلاحظ القارئ أن ابن قتيبة حين يذكر ترتيب مواد الكتاب أنه يبين علة

---

(١) التدبير : هو المدبر : من العبيد والإماء ، مأخوذ من الدُّبُر ، لأن السيد أعتقه بعد وفاته ، والممات دبر الحياة ، فقيل مدبر ، والفقهاء المتقدمون يقولون : المعتق من دبر أى بعد الممات . انظر (غريب الحديث) جـ١ ص٤٤ .

(٢) انظر المصدر السابق جـ١ ص٦ ، ٧ .

﴿٩٢﴾

التقديم لبعض الأبواب على غيرها ، فإن الفقيه والمفتى لابد أن يكون عالما علما واسعا دقيقا بمعانى ألفاظ النصوص التى تنبنى عليها الأحكام والفتاوى .

وعلى هذا ينبنى شرط العلم اللغوى للفقيه والمفتى ، فهو من أداوته الضرورية للوصول إلى غايته ومقصده ، دون أن يحمِّل نصا ما لا يحتمل ، أو أن يبعد عن دلالة النصوص الشرعية ومقاصدها .

- كما يلاحظ أنه لا يألو جهدا فى الدفاع عن السنة وأهلها ما استطاع إلى ذلك سبيلا ، فيخص أهل الأهواء الرافضة والمرجئة والقدرية والخوارج بنصيب يبين موقف السنة المطهرة من هؤلاء محددا معالمهم وأسباب تسميتهم بذلك فيقول عن الرافضة (مثلا) :

الرافضة : بلغنى عن الأصمعى أنه قال : إنما سميت الرافضة ، لأنهم رفضوا زيد بن على وتركوه ، ثم لزم هذا الاسم كل من غلا مذهم فى مذهبه وتنقص السلف [1] . ويبين ذلك باختصار دون إطالة وإسهاب .

- ويلاحظ أن ذكر هذه العجالة فى المقدمة تعطى القارئ لكتابه (غريب الحديث) تصورا عاما عن هيكل ترتيب المواد فيه ، فتساعد الباحث إلى الوصول إلى بغيته بيسر وسهولة ، فنراه يشير إلى أنه يبدأ بحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم ما جاء عن الصحابة ثم ما جاء عن التابعين وما بعدهم ، وإن كان هذا مسلك لعلماء عصره لم ينفرد به إلا أن إلتزامه به هو جهد مشكور ، يحمد عليه ويكون فى ميزان خير أعماله .

وفيما يلى مثال :

يقول - رحمه الله - ، ذكر الألفاظ فى الفقه والأحكام واشتقاقها : الوضوء للصلاة : هو من الوضاءة ، والوضاءة النظافة والحسن ، ومنه قيل : فلان وضيء الوجه ، أى : نظيفه وحسنه ، فكأن الغاسل لوجهه وضأه ، أى : نظفه بالماء وحسنه ، ومن غسل يده أو رجله أو عضوا من أعضاءه أو سكن من شعث رأسه

(١) المصدر السابق جـ١ ص٦٠ .

بالماء فقد وضّأه . والوضوء الذى حدّه الله عز وجل فى كتابه للصلاة ، هو غسل الوجوه والأيدى إلى المرافق ، والمسح بالرؤوس والأرجل ، والغسل للرجل وغيرها يسمى مسحا ، خبرنا بذلك سهل بن محمد عن أبى زيد الأنصارى قال : وقال ألا ترى أنك تقول تمسّحْت للصلاة ، إذا توضأت لها ، وإنما سمى الغسل مسحا ، لأن الغسل للشئ تطهيرا له بإفراغ الماء ، والمسح تطهير له بإمرار الماء ، فالمسح خفيف الغسل . وكانوا يتوضؤون بالقليل من الماء ولا يسرفون فيه ، وكان وضوء رسول الله صلى الله عليه وسلم بمُدٍّ من ماء ، والمد رطل وثلث برطل زماننا ، فهذا يدلك على أنه كان يمسح بالماء يديه ووجهه ورجليه ، وهو لها غاسل ، ويدلك أيضا ما رواه الأعمش عن ابراهيم : أن رجلا قال له : إن أمّى إذا توضأت أخذت الماء بكفيها ثم صبته ثم مسحت وجهها ، فقال : ابراهيم : أى وضوء أتم من هذا ، ما كانوا يلطمون وجوههم بالماء . فهذا مسح وغسل .

والواجب على من أجنب أن يغتسل بالماء ، لو أنه ترك عضوا من أعضائه لم يغسله ، ثم ذكره فمسحه بندى يده حتى يعمه أجزأ ذلك عنه ، وكان مغتسلا ، فلما كان المسْح قد يكون غسلا ، ووقعت الرؤوس فى التلاوة بالمسح عليها ، ثم جاءت الأرجل بعد ، كأن المسح بها هو غسلها ، [1] أ. هـ .

ثم يتناول – رحمه الله – المراد بالوضوء مما مست النار ويدلل على ما ذكر بروايات من أحاديث النبى صلى الله عليه وسلم ، ويبين المقصود بأمر النبى صلى الله عليه وسلم فى غسل اليدين عند الاستيقاظ من النوم ، فهو يؤكد ما يذكره بالآثار ، ويذكر أحكاما فقهية ذات ارتباط بالمعنى المذكور ، وذلك فى درج ما يذكر من الآثار الدالة على صواب ما ذهب إليه من معانى .

فالناظر فى كثير مما تعرض له من ألفاظ الحديث يجد أنه يتناول الكلمة ويبينها ، وما يقاربها من الألفاظ بأسلوب واضح المعنى بعيد عن التعقيد أو التوسع الممقوت ، بطريقة غالبا ما تفى بمطلوب الباحث ، دون العوز إلى الرجوع إلى غيره ، فيما تناوله بالتفسير والبيان . والله أعلم .

---

(١) المصدر السابق جـ١ صـ٨ ، ٩ .

﴿٩٤﴾

المبحث الرابع

بيان جهود ابن قتيبة
من خلال كتاب [الأنواء] (١)

هذا كتاب ألفه ابن قتيبة الدينورى فى علم النجوم والرياح والفلك والسحاب حيث يقول رحمه الله تعالى (هذا كتاب أخبرت فيه بمذاهب العرب فى علم النجوم ومطالعها ، ومساقطها ، وصفاتها ، وصورها ، وأسماء منازل القمر منها ، وأنوائها، وفرق ما بين يمانها وشامها ، والأزمنة وفصولها ، والأمطار وأوقاتها ، واختلاف أسمائها فى الفصول ، وأوقات التبدّى لتتبع مساقط الغيث ، كل نجم من الدلالات على الحوادث عند طلوعه ، وعن الرياح وأفعالها ، وتحديد مهابّها ، وأوقات بوارحها ، وعن الفلك والقطب والمجرّة ، والبروج والنجوم والخُنّس والشمس والقمر، ودرارى الكواكب ، ومشاهيرها ، والإهتداء بها ، وعن السحاب ومخايله ماطره ومخلفه ، والبروق خلبّها وصادقها ، وأمارات خصب الزمان وجدوبته إلى غير ذلك . ثم يبين أن العرب كانت لهم معارف كبيرة بذلك : فيقول : « وكان غرضى فى جميع ما أنبأت به الاقتصار على ما تعرف العرب فى ذلك وتستعمله ، دون ما يدعيه المنسوبون إلى الفلسفة أو من الأعاجم ، ودون ما يدّعيه أصحاب الحساب ، فإنى رأيت علم العرب بها هو العلم الظاهر للعيان ، الصادق عند الامتحان ، النافع لنازل البر وراكب البحر وابن السبيل ، يقول الله عز وجل : ﴿ وهو الذى جعل لكم النجوم لتهتدوا بها فى ظلمات البرّ والبحر ﴾ .(٢)

فكم من قوم حاد بهم الليل عن سواء السبيل فى لجج البحار ، وفى المهامة القفار ، حتى أشرفوا على الهلاك ، ثم أحياهم الله بنجم أمُّوه أو بريح استنشوها ، ثم

---

(١) الأنواء : جمع نوء ، ومعنى النوء سقوط النجم منها فى المغرب مع الفجر ، وطلوع آخر يقابله من ساعته فى المشرق . بهذا فسره ابن قتيبة فى كتابه المذكور ص٦ .
(٢) سورة الأنعام ٩٧ .

يعرض إلى أشهر قبائل العرب معرفة بذلك ويحكى بعض تجاربه فى ذلك بقوله (ويقال إن أعلم العرب بالنجوم كلب وبنو شيبان وإن العلم من كلب فى بنى معاوية، ومن شيبان فى مُرّة ، وصحبنى رجل من الأعراب فى فلاة ليلا ، فأقبلت أسأله عن محالّ قوم من العرب ومياههم ، وجعل يدلّنى على كل محلة بنجم ، وعلى كل ضياء بنجم ، فربما أشار إلى النجم وسماه ، وربما قال لى : تراه ، وربما قال لى : ولّ وجهك نجم كذا ، أى اجعل مسيرك بين نجم كذا حتى تأتيهم ، فرأيت النجوم تقودهم إلى مواضع حاجاتهم ... ولحاجتهم إلى التقلب فى البلاد والتصرف إلى المعاش وعِلمهم ، أن لا تقلب ولا تصرف فى الفلوات إلا بالنجوم عُنوا بمعرفة مناظرها .

ولحاجتهم إلى الإنتقال عن محاضرهم إلى المياه وعلمهم أن لا نقلة إلا لوقت صحيح يوثق فيه بالغيث والكلاء ، عنوا بمطالعها ومساقطها .

هذا مع الحاجة إلى معرفة وقت الطرق ووقت النتاج ووقت الفصال ، ووقت غور مياه الأرض وزيادتها وتأبير النخل ، ووقت ينع الثمر ووقت جَداده ، ووقت الحصاد ، ووقت وباء السنة فى الناس وفى الإبل ، وغيرها من النعم بالطلوع والغروب .

ثم يشير إلى أن هذا العلم قد يحتاج إليه أهل المدن أيضا بقوله : وقد يحتاج نازل المدن وسالك العمارات ، وإن كان مستغنيا فى بعض الأحوال عن هذا الشأن إلى معرفته .

ثم يبين رحمه الله تعالى مصادر إستقاءه لعلم هذا الكتاب ، فيقول : وقد قَيّدت بهذا الكتاب أطرافا من هذا الفن أدركت بعضها بالتوقيف ، وبعضها بالاعتبار ، واستخرجت بعضها من الأسفار .[1]

(١) كتاب الأنواء ص١/٤ بتصرف .

﴿٩٦﴾

هذا مضمون كتاب (الأنواء) كما يعرف به مؤلفه ابن قتيبة الدينورى رحمه الله تعالى ، ويبدأ فيه بذكر منازل القمر ومنازل القمر ثمانية وعشرون منزلا . ثم يختم موضوع كتابه بسؤال : كيف يكون الاهتداء بالنجوم ؟ ويجيب بقوله : الاهتداء بالنجوم يكون بمعرفة افاق السماء وهى أربعة آفاق ، لكل ريح من الرياح الأربع أفق تأتى منها ... الخ .[١]

* من مواضع استعماله للحديث النبوى الشريف فى الكتاب :

(١) يقول رحمه الله تعالى عند « ذكر منازل القمر » : ... فإذا بدا من الشهر الثانى هلالا ، طلع وقد قطع ليلة السرار منزلا من هذه المنازل . وسأبين هذا فى باب القمر ، ومعنى قول رسول الله صلى الله عليه وسلم فى هلال شعبان وهلال رمضان : إذا غُمّ عليكم فاقدروا له ، وإذا غم عليكم ، فأكملوا العدة .[٢]

ثم يقول فى (ذكر الشمس والقمر) :

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم فى هلال شهر رمضان « إذا غم عليكم فاقدروا له » رواية ابن عمر [٣] وقال فى حديث آخر : « إذا غم عليكم فأكملوا العدة» رواية ابن عباس .[٤]

---

(١) المرجع السابق ص١٩٠ .
(٢) أخرجه البخارى / كتاب الصيام / باب قول النبى إذا رأيتم الهلال فصموا جـ٢ ص٦٧٤ جزء ص . وأخرجه مسلم / كتاب الصيام / وجوب صوم رمضان لرؤية الهلال : جزء ٢ ص٧٥٩ جزء ص . وأخرجه مالك / كتاب الصيام / باب ما جاء فى رؤية الهلال للصوم / ط ص٢٨٦ جزء ص .
(٣) سبق تخريجه فى الموضع السابق .
(٤) أخرجه أبو داود / كتاب الصيام / باب من قال فإن غمّ عليكم فصوموا ثلاثين .../ جـ٢ ص٢٩٨ .
- وأخرجه الترمذى / كتاب الصيام / باب ما جاء أن الصوم لرؤية الهلال .../جـ٣ ص٧٢ .
- وأخرجه النسائى / كتاب الصيام / باب إكمال شعبان ثلاثين ... / جـ٤ ص١٣٣ .
- وأخرجه مالك / كتاب الصيام / باب ما جاء فى رؤية الهلال للصوم / جـ١ ص٢٨٦ .

[قال] : وهذا الحديث ناسخ لحديث ابن عمر ، ومعنى « اقدروا له » [المسير] أى قدروا له المسير والمنازل ، يقال قدرت الشئ وقدّرته ، بمعنى واحد . والتقدير له أن يكون إذا غمّ على الناس ليلة ثلاثين فى آخر شعبان ، بأن تعرف مستهلّه فى شعبان لليلته . ويعلم أنه يمكث فيها ستة أسباع ساعة من أولها . ثم يغيب . وذلك فى أدنى مفارقته للشمس ، ولا يزال فى كل ليلة يزيد على مكثه فى الليلة التى قبلها ستة أسباع ساعة . فإذا كان فى الليلة السابقة غاب فى نصف الليل ، وإذا كان فى ليلة أربع عشرة طلع مع غروب الشمس ، وغرب مع طلوعها ثم يتأخر طلوعه عن أول ليلة خمس عشرة ستة أسباع ساعة . ولا يزال فى كل ليلة يتأخر طلوعه عن الوقت الذى طلع فيه فى الليلة التى قبلها ستة أسباع ساعة إلى أن يكون طلوعه ليلة ثمان وعشرين ، مع الغراء ، فإن لم ير صبح ثمان وعشرين عُلم أن الشهر ناقص وعدّته ثلاثون .

- وقد يتعرف أيضا بمكث الهلال فى ليالى النصف الأول من الشهر ، ومغيبه من الليل ، وأوقات طلوعه ليلالى النصف الآخر من الشهر ، وتأخره عن أول الليل ، ويتعرف من المنازل بأن الهلال إذا طلع فى أول ليلة من شعبان فى الشرطين ، وكان شعبان تامًا ، طلع فى أول ليلة من شهر رمضان فى الثريا ، وإن كان شعبان ناقصا ، طلع فى البطين ، وهذا أمر يضيق ويصعب على الناس ، ويكثر فيه التنازع والاختلاف ، فنسخه رسول الله صلى الله عليه وسلم بقوله (إذا غُمّ عليكم فأكملوا العدّة ثلاثين) . وقد ذكرت مثل هذا فى الكتاب الذى ألفته فى الصيام ، ولا يمكن أن يرى الهلال بالغداة فى المشرق بين يدى الشمس ، وبالعشىّ فى المغرب خلف الشمس فى يوم واحد ، ولكن يمكن ذلك فى يومين ، وفى ثلاثة، فإذا كان ذلك فى يومين ، فهو حين يستسر ليلة واحدة [وإذا كان فى ثلاثة فهو حين يستسر ليلتين] .[1]

(١) انظر الأنواء ص١٢٩ - ١٣١ .

ويلاحظ ابن قتيبة يوازن بين النصوص ، ويتكلم عن النسخ ، ويفسر الألفاظ لغويا ليبين الشاهد فى الحديث ، ويظهر مدى اهتمامه بالحديث النبوى عند تناوله ، أو يعرض له الكلام فيه .

(٢) ويقول عند (معنى العرب فى نسبة المطر إلى النوء) :

« وقد تدّبرت ما جاء فى الشعر من نسبة العرب المطر إلى نوء النجم فوجدته نوعين :

أحدهما : أن يجعلوا نوء النجم علَما للمطر ووقتا له ، كما يجعلون الشتاء للبرد وقتا ، والقيظ للحر وقتا ، وكما يقولون لمطر الشتاء «الشتّى» فينسبونه إليه لأنه وقت له .

ومن ذهب منهم إلى هذا المذهب ، ونوى فى النوء هذه النيّة فقال : « مطرنا بنوء الثريا » يريد حين تبيّن ناءت ، لم يكن بذلك بأس ، ولا عليه فيه إن شاء الله جناح ، وإليه ذهب ابن عباس فى قوله للمرأة التى جعل زوجها أمرها فى يدها ، فطلّقته : « خطأ الله نوءها ألا طلقت نفسها » ، يريد : أخلى الله نوءها من المطر ، والمعنى حرمها الله الخير كما حرم من لم يمطر وقت المطر ، وكذلك قول عمر للعباس حيث استسقى به « يا عمّ رسول الله ، كم بقى من نوء الثريا ، فإن العلماء بها يزعمون أنها تعترض فى الأفق سبعا كأنه علِم أن نوء الثريا وقت يُرجا فيه المطر ، ويؤمّل فسأله عنه : « أخَرَج ، أم بقيتْ منه بقيّة ؟ .

والنوع الآخر : هو أن يجعل الفعل للكواكب فيكون عنده هو الذى أنشأ السحاب ، وأتى بالمطر وذا من أمور الجاهلية ، وإياه أراد رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ثلاث من أمور الجاهلية : الطعن فى الأنساب ، والنياحة ، والأنواء » [١] .

---

(١) أخرجه الترمذى / كتاب الجنائز / باب ما جاء فى كراهية النوح / جـ٢ ص٣٢٥ بلفظ أربع .

- وأخرجه أحمد فى مسنده جـ٢ ص٢٥٦ . بلفظ (أربع) بزيادة (العدو)

﴿٩٩﴾

وقال « إن الله عز وجل يقول : ما أنعمتُ على عبادى نعمة إلاّ أصبحت طائفة منهم بها كافرين ، يقولون : مطرنا بنوء كذا وكذا ، فأما من آمن بى ، وحمدنى على سقياى ، فذلك الذى آمن بى وكفر بالكواكب » .(١)

وقال – يعنى النبى صلى الله عليه وسلم – : « لو أن الله حبس القطرَ عن الناس سبع سنين ، ثم أرسله ، أصبحت به طائفة كافرين ، يقولون : مطرنا بنوء المجدَح .(٢) قال ابن عباس فى قول الله عز وجلّ ﴿ وتجعلون رزقكم أنكم تكذبون ﴾ (٣) أراد الأنواء والرزق ها هنا بمعنى الشكر أى تجعلون شكركم لله على ما رزقكم أن تنسبوا ذلك الرزق إلى الكواكب فمن ذلك قول رؤبة :

وجَفَّ أنواءُ السحاب المرتزَقُ

أى جفَّ البقلُ الذى كان بالنوء المرتزق ، وقول الآخر :

مقابلة فى الأكرمين وبطها ∴ أبو الأنجم المستمرات نواها

– ولولا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ذمّ مذاهب العرب فى الأنواء ، فدلّ ذلك على أنه لا عمل للنوء فى الحساب والرياح والمطر ، لساغ للظان بإكثار العرب فى هذا أن يظن أن للنوء عملا فى المطر كعمل الريح فى إنشاء السحاب ، واستنزال المطر وإلقاح الشجرة ، وكعمل القمر فى المد والجزر وهذه أشياء سخرها الله عز وجل ووصف الخلق بها ، فلم تعدُ ما سخرت له ، والأفعال مضافة إليها ، والفعل لله عز وجل بها .(٤)

---

(١) أخرجه مسلم / كتاب الإيمان / باب كفر من قال مطرنا بالنوء / جـ١ ص٨٤ ألفاظ متقاربة .
– وأخرجه أبو داود / كتاب الطل / باب فى النجوم / جـ٤ ص١٦ زيد بن خالد الجهنى .
– وأخرجه مالك / كتاب الاستسقاء / باب الاستمطار بالنجوم .
(٢) أخرجه أحمد جـ٣ ص٧ .
(٣) سورة الواقعة ﴿ ٨٢ ﴾ .
(٤) الأنواء ص١٣/١٥ .

﴿١٠٠﴾

ونرى فى شرح ابن قتيبة الدينورى رحمه الله تعالى لأقوال النبى صلى الله عليه وسلم ما يظهر بوضوح فقه الحديث عنده ، وكأنه يعقد الباب ليتناول هذه الأقوال تناولا أساسيا وليس استطرادا ، وذلك لما يرى من ضرورة الفهم لها فهما صحيحا ، لتعلقها بأخطر أمور الشريعة وهو الإيمان بالله تعالى ، ولهذا نراه لا يترك المراد والقصد لما يفهم من مضمون الحديث أو شرحه للحديث بل يوضح ما ينبغى أن تكون عليه عقيدة المسلم بقوله (وهذه أشياء سخرها الله عز وجل ، ووصف بها الخلق فلم تعدُ ما سخرت له ، والأفعال مضافة إليها ، والفعل لله عز وجل بها) . ولاشك أن هذا المعنى موافق تماما لمراد النبى صلى الله عليه وسلم بل وموافق لما ورد فى كتاب الله عز وجل فى آيات كثيرة نترى منها قوله تعالى ﴿ أفرأيتم الماء الذى تشربون . ءأنتم أنزلتموه من المزن أم نحن المنزلون . لو نشاء جعلناه أُجاجا فلولا تشكرون ﴾ .[1]

وحديث أنس فى البخارى ومسلم فى الرجل الذى جاء إلى النبى صلى الله عليه وسلم وهو قائم يخطب فقال : يا رسول الله هلكت الأموال وانقطعت السبل فادع الله عز وجل يغيثنا فرفع يديه – ورفع الناس أيديهم – ثم قال : اللهم أغثنا .. قال أنس : فلا والله ما نرى فى السماء من سحاب ولا قزعة ، وما بيننا وبين سلع [2] من بيت ولا دار ، قال : فطلعت من وراءه سحابة مثل الترس ، فلما توسطت السماء انتشرت ثم أمطرت قال : فلا والله ما رأينا الشمس سبتا [3] ثم دخل رجل من ذلك الباب فى الجمعة المقبلة ورسول الله صلى الله عليه وسلم قائم يخطب فاستقبله قائما ، فقال : يا رسول الله هلكت الأموال وانقطعت السبل فادع الله يمسكها عنا قال : فرفع رسول الله صلى الله عليه وسلم يديه ثم قال : (اللهم حوالينا

(١) سورة الواقعة الآيات ﴿ ٦٨ ، ٦٩ ، ٧٠ ﴾ .
(٢) سلع بفتح المهملة وسكون اللام : جبل معروف بالمدينة .
(٣) أى أسبوعا .

ولا علينا ، اللهم على الآكام والظراب وبطون الأودية ، ومنابت الشجر ، قال : فانقلعت وخرجنا نمشى فى الشمس) .[١]

فهذا دعاء النبى صلى الله عليه وسلم الله عز وجل واستجابته دون أن يكون هناك تعلق بكوكب أو نجم إنه الله تعالى خالق السموات والأرض وما فيهن ، وملك السموات والأرض وما فيهن ، وهذا ما أراد أن يؤكده ابن قتيبة الدينورى فى نفوس الناس .

(٣) وحين يتكلم ابن قتيبة الدينورى رحمه الله تعالى عن أَوْبَى أوقات السنة يورد حديثا للنبى صلى الله عليه وسلم مطلقا يقول : [وأَوْبَى] أوقات السنة عندهم ما بين مغيب الثريا [٢] إلى طلوعها ... ويقال : ما طلعت ولا ناءت إلا بعاهة فى الناس والإبل ، وغربها أعْيَهُ من شرقها .

وأما قول رسول الله صلى الله عليه وسلم (إذا طلع النجم لم يبق فى الأرض [من] العاهة شئ إلا رفع) [٣]، فإنه أراد بذلك عاهة الثمار ، لأنها تطلع بالحجاز وقد أزهى البسر ، وأمنت عليه العاهة ، وحَلَّ بيع النخل ...) [٤] وفى هذا النص يوفق بين الروايات ويزيل ما ظاهره التناقض حرصا منه على سلامة فهم حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ومعرفة دلائل كل نص من الحديث النبوى .

(٤) وحينما يتكلم عن المجْدَح وهو كوكب أحمر منير يتلو الثريا ويسمى

---

(١) أخرجه البخارى : كتاب الصلاة / باب الإستسقاء فى الخطبة يوم الجمعة / جـ١ ص٣١٥ .
- وأخرجه مسلم : كتاب الصلاة / باب رفع اليدين بالدعاء فى الاستسقاء / جـ٢ ص٦١٢ .

(٢) مجموعة من الكواكب وهى ستة أنجم ظاهرة فى خللها نجوم كثيرة خفية ويسمونها نجما . انظر : الأنواء ص٢٣ .

(٣) أخرجه ابن قتيبة فى باب الثريا ص٣١٠ / وأخرجه السيوطى فى الجامع الصغير بلفظ (إذا طلعت الثريا أمن الزرع من العاهة) جـ١ ص٣١ وعزاه إلى الطبرانى فى الصغير .

(٤) انظر الأنواء ص٣١ .

(تابع النجم) و(تالى النجم) وباستدباره الثريا سمى دبرانا فيقول : والمجدح هو الذى ذكر فى الحديث ، لو أن الله حبس القطر عن الناس سبع سنين ثم أرسله ، أصبحت طائفة به كافرين يقولون : مطرنا بنوء المِجْدَح) [١] فهذا حديث له صلة وثيقة بموضوع كتابه يذكره مذهبا أن الله تعالى هو يحبس القطر عن الناس بأمره، ويرسله بأمره ، فليست الأسباب مؤثرة بذاتها وإنما هى تجرى بأمر الله تعالى .

(٥) ونجد ابن قتيبة رحمه الله تعالى يبين أصل كلمة (ابن أبى كبشة) التى دعى بها النبى صلى الله عليه وسلم فى أول أمره ، حينما يتكلم عن ، نجم الشعرى ، بقوله : وهى التى ذكرها الله عز وجل فى كتابه إذ يقول : ﴿ وإنه هو ربُّ الشِعرى ﴾ [٢] لأن قوما فى الجاهلية عبدوها ففتنوا بها ، وكان أبو كبشة الذى كان المشركون ينسبون رسول الله صلى الله عليه وسلم إليه أول من عبدها وقال : قطعت السماء عرضا ، ولم يقطع السماء نجم غيرها ، فعبدها ، وخالف قريشا ، فلما بعث النبى صلى الله عليه وسلم ، ودعاهم إلى عبادة الله عز وجل ، وترك أوثانهم قالوا : ، هذا ابن أبى كبشة ، [٤] أى شبهه ومثله فى الخلاف ، كما قالت بن إسرائيل لمريم ﴿ يا أخت هارون ما كان أبوك امرأ سوء ﴾ يريدون ياشبيه هارون فى الصلاح .[٥]

يلاحظ فى هذا الموضع أن ابن قتيبة يتحين فرصة الدفاع عن النبى صلى الله عليه وسلم فى أمر إدعاه المشركون كذبا وافتراء عليه حين نسبوه لأبى كبشة فأبو كبشة يدعو إلى مخلوق ،والنبى صلى الله عليه وسلم يدعو إلى عبادة الخالق عز وجل وهو رب الشعرى .

---

(١) أخرجه ابن قتيبة فى ، باب الدبران ، ص٣٧ .
- وأخرجه أحمد جـ٤ ص٧ .
(٢) سورة النجم ﴿ ٥٤ ﴾ .
(٣) الذى عبد الشعرى كان الحارث وهو غبشان بن عمرو بن ملكان / طبقات ابن سعد جـ١ ص٣١ . وأخرجه البخارى فى اسلام زيد سفيان .
(٤) سورة مريم ﴿ ٢٠ ﴾ .
(٥) الأنواء ص٤٦ .

(٦) ومن مواضع ذكره لحديث النبى صلى الله عليه وسلم الاعتماد عليه فى بيان مقاصد الألفاظ إن لم يجدها فى كتاب الله تعالى يتضح ذلك المنهج من قوله عند بيان الفلك والسماء :

« وقد سمعت من يذكر أن الأفلاك أطواق تجرى فيها النجوم والشمس والقمر، والسماء فوقها ، ولست أدرى كيف هذا ؟ ، ولا وجدت عليه شاهدا من الكتاب ولا من الحديث ولا قول العرب ، والله عز وجل يقول : ﴿ إنا زيّنا السماء الدنيا بزينة الكواكب ﴾ [١] ، فلولا أنه قد يجوز أن يسمى الفلك سماء ، كما يسمى السحاب سماء لم أر ما ذهبوا إليه إلا باطلا والله أعلم .

ثم يقول : والسموات طباق ، كما ذكر الله ، ولذلك تسمى السماء رقيعا ، لأنها رقيع لما فوقها ، وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لسعد : « لقد حكمت بحكم الله تعالى من فوق سبع أرقعة » [٢] ، يريد من فوق سبع سموات » .[٣]

وإن كان المشهور فى هذه الرواية أنها جاءت بالنص على سبع سماوات ، إلا أنه يمكن أن يقال : أن هذه الرواية ربما لم تصله ، وإلا كان استدل بها مباشرة كنص فى المسألة .

ويبدو هذا الاعتماد على الحديث النبوى واضحا عند ذكره (الساهور)[٤] وبيان المراد به بقوله : وقال النبى صلى الله عليه وسلم لعائشة ، وأشار إلى القمر « تعوذى بالله من هذا فإنه الغاسق إذا وقب » يريد أنه يَسْوَدّ إذا كسف ، وكل شئ اسود فقد غسق [٥] . إنه بذلك يضع منهجا لأهل عصره ومن بعدهم فى فهم

---

(١) سورة الصافات ﴿ ٦ ﴾ .
(٢) أخرجه أحمد جـ٣ ص٧١ ، جـ٦ ص٦٧ / ابن قتيبة (الأنواء) ص١٢٤/١٢٥ معلقا / راجع سيرة ابن هشام ص٦٨٩ . وهو حديث متفق عليه .
(٣) انظر كتاب (الأنواء) ص١٢٤ ، ١٢٥ بتصرف .
(٤) الساهور يفسره ابن قتيبة بقوله : يقال : أنه كالغلاف للقمر ، دخل فيه إذا كسف ، وهو الغاسق إذا وقب ، إذا دخل فى ساهور فكسف . (الأنواء) ص١٣٥ .
(٥) المرجع السابق ص١٣٥ .

﴿١٠٤﴾

دلائل الأشياء بل ومعانى الألفاظ فهو كتاب الله تعالى وحديث النبى صلى الله عليه وسلم ثم أقوال العرب الذين نزل القرآن الكريم بلغتهم وكان رسولهم عربيا أفصح العرب قاطبة .

٧ – ويتناول رحمه الله تعالى بيان الفجر المستطير والمستطيل عند كلامه على « الفجران » [١] فيقول : « وقال أبو ذويب وذكر الثور والكلاب :

شعفَ الكلاَب فؤادَه		فإذا يرى الصبحَ المصدِّقَ يفزع

« شعف الكلاب فؤاده ، كأنها ذهبت به ، فإذا رأى الصبح المصدق ، يفزع لأن القناص يأتون نهارا ، وهذا الفجر الثانى هو المستطير ، ومنه الحديث « ليس المستطيل ، يعنى الفجر الأول « ولكن المستطير « يريد المنتشر الضوء ، ومع طلوعه يتبين الخيط الأبيض من الخيط الأسود » .[٢]

فنراه رضى الله عنه يشير فى هذا النص إلى وقت إمساك الصائم فإنه عند تفسيره لمعنى الفجران يقول « فالفجر الأول هو الفجر الكاذب وهو مستدق صاعد فى غير اعتراض ويسمى ذنب السرحان لرقته وهو لا يحل شيئا ولا يحرمه ، والفجر الثانى الصادق المصدق » .

وفى ذلك عتابة منه بحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فإنه يشير إلى أن هذا اللفظ قد ورد فى حديث للنبى صلى الله عليه وسلم ، وأن نعمة الله تعالى ظاهرة فى تسخير هذا الكون لعباده لاسيما أهل الطاعة والعبادة ، وأن الله تعالى قد علّم رسوله صلى الله عليه وسلم من العلوم التى بها يوضح شرع الله تعالى ودينه ،

(١) الفجران : مثنى فجر : أحدهما قبل الآخر – كما يقول ابن قتيبة – فالفجر الأول هو الفجر الكاذب ، وهو مستدق صاعد فى غير اعتراض ، ويسمّى ذنب السرحان لدقته، وهو لا يحل شيئا ولا يحرمه ، والفجر الثانى : هو الفجر الصادق والمصدّق . انظر الأنواء ص١٤٢ .

(٢) المرجع السابق ص١٤٣ بتصرف .

فهو دين توجد دلائله فى الكون ، كما توجد أحكامه فى كتابه العزيز وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم .

(٩) ويظهر سعة علم ابن قتيبة رحمه الله تعالى وفقهه بكتاب الله تعالى ، وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم حين يعرض لبيان « الشفقان » فينتقل بالقارئ إلى مسألة فى التفسير ، أو شرح لحديث النبى صلى الله عليه وسلم ، أو مسألة فقهية ذات علاقة وثنية بموضوع كتابه فيقول رحمه الله تعالى : « وهما شفقان أحدهما قبل الآخر ، ومثالهما من أول الليل مثال الفجرين من آخره ، فالأول هو الأحمر ، وإذا غاب حلت صلاة العشاء الآخرة ، والثانى هو الأبيض والصلاة جائزة إلى غروبه ، وهو يغرب فى نصف الليل ، وآخر أوقات العشاء الآخرة نصف الليل ، قال الله جل ثناؤه : ﴿ أقم الصلاة لدلوك الشمس إلى غسق الليل ﴾[١] .

و« دلوك الشمس » غروبها وزوالها ، فدل بدلوك الشمس ، إذ كان الغروب والزوال على صلاة الظهر ، وعلى صلاة المغرب .

ودَلَّ بقوله إلى (غسق الليل) وهو ظلامه على صلاة العشاء الآخرة ، وقال : « حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى »[٢] وهى العصر جعلها وسطى ، لأنها بين صلاتين بالنهار وصلاتين بالليل .

وقال : ﴿ وقرآن الفجر إن قرآن الفجر كان مشهودا ﴾[٣] فدل على صلاة الصبح »[٤] .

ثم ينتقل رحمه الله تعالى مباشرة بعد بيان دلالات الآيات القرآنية على

(١) سورة الإسراء ﴿ ٧٨ ﴾ .
(٢) سورة البقرة ﴿ ٢٣٨ ﴾ .
(٣) سورة الإسراء ﴿ ٧٨ ﴾ .
(٤) الأنواء ص١٤٣ ، ١٤٤ .

أوقات الصلاة إلى سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم فيقول : « وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يصلى الظهر إذا دحضت الشمس » [١] إذا زالت وأصل الدحض ، الزلق ، وذلك أنها لا تزال ترتفع حتى تصير فى جو السماء فتراها كأنها تقف شيئا ، ثم تنحط ، فحينئذ تزول ، ويتحول الظل من جانب إلى جانب ، ويسمى فيئا ، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « أمنى جبريل مرتين ، فصلى الظهر حين مالت الشمس قيد الشراك ، وصلى العصر وظله مثله ، وصلى المغرب حين وقعت الشمس ، وصلى العشاء حين غاب الشفق ، وصلى الصبح حين طلع الفجر ، فلما كان من الغد ، صلى الظهر وظله مثله ، وصلى العصر وظله مثلاه ، وصلى المغرب حين وقعت الشمس ، وصلى العشاء حين ذهب ثلث الليل ، أو نصف الليل ، وصلى الغداة فأسفر بها وقال : إن الصلاة فيما بينهما » [٢] وقوله (حين مالت الشمس قيد الشراك) يريد أنها زالت فصار للشخص فئ يسير قدر الشراك ، وليس يكون ذلك فى كل بلد ، إنما يكون فى البلد الذى ينتقل فيه الظل عند الزوال فلا يكون للشمس فئ أصلا ... والحجاز وما يليه ينتقل فيه الظل ، فأما البلد الذى تزول الشمس وللشخص فيه ظل ، فإنه يعرف قدر الظل الذى زالت عليه ، وإذا زاد عليه مثل طول الشخص فذاك آخر وقت الظهر ، وأول وقت العصر ، وإذا زاد عليه مثلا طول الشخص ، فذاك آخر وقت العصر على ما روى فى الحديث » .[٣]

إن القارئ لهذا النص وما ذكره فيه ابن قتيبة رحمه الله تعالى من تحديد دقيق ، وتحرٍ شديد لأوقات الصلاة ، يجد نفسه أمام عالم ضرب فى العلم بسهم

---

(١) أخرجه مسلم / كتاب الصلاة / باب استحباب تقديم الظهر فى أول الوقت ... / جـ١ ص٤٢٢ .

(٢) أخرجه أبو داود / كتاب الصلاة / باب فى المواقيت / جـ١ ص١٠٧ .
- وأخرجه أحمد فى المسند جـ١ ص١٣٣ .

(٣) الأنواء ص١٤٤ ، ١٤٥ بتصرف .

وافر ، وباع طويل ، متحليا بالصبر والأناة ، فى بيان شرع الله تعالى ، لا يكتم علما ، ولا يدخر جهدا فى عرضه وبيانه .

هذا : ويلاحظ بوجه عام على ما يذكر من هذه النصوص ، إقتصاره على موضع الشاهد فى الحديث ، وعدم ذكر الحديث بإسناده ، فإنه يذكره مطقا ، وربما كان ذلك لمناسبة موضوع الكتاب ، كما أنه يستشهد بنفس الطريقة بأقوال الصحابة الموقوفة عليهم ، والله أعلم .

المبحث الخامس

بيان جهود ابن قتيبة الحديثية من خلال كتاب [المعارف]

لقد شهد العلماء ، بسعة علم ابن قتيبة الدينورى رحمه الله تعالى ووصفوه بأنه صاحب التصانيف – كما ورد فى التعريف به – وما هذه التصانيف إلا شاهد صدق لجهود وافرة قام بها رحمه الله تعالى .

وكتاب « المعارف » واحد من هذه المصنفات التى تدل بوضوح على جهده العلمى ، فضلا عن كونه دال على الصبغة الحديثية لصاحبه . فقد تناول فيه مبدأ الخلق ، حيث بدأ فيه بخلق آدم عليه السلام ، وخلق الجن ، ثم تناول أولاد آدم وخبر حواء ، وبين عدد الأنبياء وعدد الكتب المنزلة ، إلى أن وصل إلى الحنفاء قبل مبعث النبى صلى الله عليه وسلم .

ثم تناول أنساب العرب من عدنان رجلا رجلا ، كمدركة بين إياس ، وكنانة ابن خزيمة ، وقريش ولؤى وأولاده ، وقصى بن كلاب ونسب بنى هاشم ونسب بنى أمية وهكذا إلى أن وصل إلى أنساب اليمن والأوس والخزرج ، ولا ينسى أن يشير إلى بعض الأحداث المثيرة والتى حرمها الإسلام ، (كتسمية من خلف على امرأة أبيه بعده) .

ثم يعرض لنسب أشرف الخلق سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم منذ مولده وقرابته ، وخيله ومراكبه ، وأحواله وشمائله الشريفة ، ومولده ومبعثه ومغازيه إلى وفاته صلى الله عليه وسلم .

وبعد الفراغ من تناول ما يتصل بالنبى صلى الله عليه وسلم أشرف الخلق يأخذ فى تناول الصحابة مبتدأ بالخلفاء الأربعة (أبى بكر وعمر وعثمان وعلى)

وأولادهم ثم باقى العشرة المبشرين بالجنة ، ثم يستطرد فى ذكر الصحابة رضى الله عنهم فيذكر طائفة كثيرة من أبرزهم .

ويذكر أسماء المؤلفة قلوبهم ، وأسماء المنافقين ، ثم أسماء الخلفاء والأمراء بدءاً من معاوية بن أبى سفيان ، وأسماء المشهورين من الأشراف وأصحاب السلطان والخارجين عليهم .

وبعد الفراغ من الطبقة السابقة ينزل إلى طبقة التابعين ومن بعدهم أولهم الأحنف بن قيس وجملة أجلة ثم أصحاب الرأى .

ويخص أصحاب الحديث ورواته فى باب ، يليهم أصحاب القراءات والنسابون وأصحاب الأخبار وذكر المساجد نحو الكعبة وبيت المقدس ، ومساجد البصرة وغيرها ويذكر المخضرمين وهكذا حتى ينتهى فى آخر كتابه بذكر ملوك العجم .

وكل هذا الخضم من المعارف ضمه مجلد واحد ، ذلك لأنه ينهج فيه منهج التناول المختصر بطريقة مناسبة لما صنف من أجله كما نبه على ذلك فى المقدمة[1] ، وسيأتى فى بيان الأسباب التى وضع من أجلها الكتاب .

* هدف الكتاب :

وبناء على العرض السابق لموضوع الكتاب فإن ابن قتيبة رحمه الله تعالى قد صنفه للتعريف بالأنساب لمن جهلها من ذوى الأحساب ، وإن اشتمل على فنون كثيرة إضافة إلى ذلك ، ويعمد ابن قتيبة فى مقدمة كتابه إلى بيان الهدف منه فيقول :

« هذا كتاب جمعت فيه من المعارف ما يحق على من أنعم عليه بشرف

(١) انظر ص٣ من « المعارف » .

المنزلة ، وأخرج بالتأديب عن طبقة الحشوة [١] ، وفُضل بالعلم والبيان على العامة، أن يأخذ نفسه بتعليمه ، ويروضها على تحفظه ، إذ كان لا يستغنى عنه فى مجالس الملوك إن جالسهم ، ومحافل الأشراف إن عاشرهم ، وحلق أهل العام إن ذاكرهم ، فإنه قل مجلس عقد على خير ، أو أسس لرشد ، أو سلك فيه سبيل المروءة ، إلا وقد يجرى فيه سبب من أسباب المعارف ، إما فى ذكر نبى أو ذكر ملك أو عالم ، أو نسب أو سلف ، أو زمان أو يوم من أيام العرب ، فيحتاج من حضر إلى أن يعرف عين القصة ، ومحل القبيلة ، وزمان الملك ، وسبب المثل المشهور .

ثم يقول رحمه الله : فإنى رأيت من الأشراف من يجهل نسبه ، ومن ذوى الأحساب من لا يعرف سلفه ، ومن قريش من لا يعلم من أين تمسه القربى برسول الله صلى الله عليه وسلم ، أو الرحم من الأعلام من صحابته ، ورأيت من أنباء ملوك العجم من لا يعرف حال أبيه وزمانه ، ورأيت من ينتمى إلى الفصيلة ، وهو لا يدرى من أى العمائر [٢] ، وإلى البطن وهو لا يدرى من أى القبائل .

ورأيت من رغب بنفسه عن نسب دق فانتهى إلى رجل لم يعقب ، كرجل رأيته ينتسب إلى أبى ذر ، ولا عقب لأبى ذر . وآخر ينتمى إلى حسان بن ثابت وقد انقرض عقب حسان .

ويقول أيضا رحمه الله تعالى : وقد يكون الرجل متبوعا فى الأدب قد سمق [٣] فيه ، وأخذ بالحظ الأوفى منه ، إلا أنه أغفل شيئا من الجليل كان أولى به من بعض ما حفظ فيلحقه فيه النقيصة ويرجع عليه منه الهجنة [٤] ، كطالب

---

(١) الحشوة : أرذال الناس والخدم .
(٢) العمائر واحدها عمارة (بفتح العين) وهى الحى العظيم من الناس ، والبطن أكبر منها ، والفصيلة العشيرة .
(٣) سمق الرجل : علا وطال .
(٤) الهجنة : العيب .

غوامض الفقه ، وقد أغفل أبواب الصلاة والفرائض ، وطالب طرق الحديث ، وقد أغفل متونها ومعانيها ، وطالب علل النحو وتصاريفه وهو يلحن فى رقعة إن كتبها وبين شعر ينشده .

وأيضا يقول رحمه الله تعالى : وكتابى هذا يشتمل على فنون كثيرة من المعارف أولها مبتدأ الخلق ، وقصص الأنبياء وأزمانهم ، وحلاهم وأعمارهم وأعقابهم وافتراق ذراريهم ونزولهم بمشارق الأرض ومغاربها ... إلى أن بلغت زمن المسيح والفترة بعده ، ووصلت ذلك بذكر أنساب العرب مختصرا ذلك ، ومقتصرا على العمائر ومشهور البطون ، ثم أتبعته أخبار النبى صلى الله عليه وسلم فى نسبه وذكر عمومته وعماته وجداته لأبيه وأمه وأظآره وأزواجه ، وأولاده ، ومواليه ، وأحواله فى مولده ، ومبعثه ومغازيه إلى أن قبض صلى الله عليه وسلم .

وأخبار العشرة من المهاجرين رحمهم الله تعالى ثم الصحابة المشهورين ... وأيضا يقول رحمه الله تعالى : ثم التابعين ومن بعدهم من حملة الحديث ، وأصحاب الرأى ، ومن عرف منهم بالترفض والتشيع والإرجاء والقدر ، وأصحاب القراءآت ...

إلى أن يقول رحمه الله تعالى : ولو قصدت الاستقصاء لطال الكتاب ، حتى يعجز عن نسخه ، فضلا عن حفظه ، ولاختلط الخفى بالجلى فمجته الآذان ، وملته النفوس ، والنفس إلى ما تعلم منه سببا أكثر تطلعا وأشد استشرافا وهو بها ألصق ولها ألزم .

وقد شرطت عليك تعلم ما فى هذا الكتاب وتعرفه ، ولو أطلته ، وذكرت ما بك عنه الغناء أكثر دهرك اتعبتك وكديتك وأحوجتك إلى أن تتلفظ منه شيئا للمعرفة والحفظ ، ونبذ منه شيئا فكفيتك ذلك ، واحتطت لك فيه بأبلغ الاحتياط ، وعايرت على نظرى بنظر للحفاظ من أخواننا والنساب .

وأرجو أن أكون قد بلغت لك فيه همة النفس ، وثلج الفؤاد ، ولنفسى ما أملت فى تبصيرك وإرشادك من توفيق الله وحسن الثواب ، [١] . وبهذا الوضوح للمنهج ، عرض ابن قتيبة رحمه الله تعالى لموضوع كتابه وهدفه من وضعه .

*** عرض كتاب (المعارف) لابن قتيبة رحمه الله تعالى والمرويات فيه :**

القارئ لكتاب (المعارف) يلمس فيه بلا عناء جهدا واضحا ، وذلك أن القدر الأعظم فيه يدور حول الأنساب - كما سلف - وهى أمور لا تخضع لرأى أو اجتهاد أو قياس ، وإنما تعتمد كليا على الجمع والنقل من المصادر والمرويات فى ذلك ، وبذل أقصى الجهد فى التحرى ، لإثبات النسب الصحيح ، ولا يخفى ما فى ذلك من جهد .

لهذا تعددت مصادر ابن قتيبة رحمه الله تعالى فى هذا الكتاب ، ويظهر من أسلوب الكتاب أن بعضه كان إملاءً ، وبعضه كتابة بنفسه ، يدل على ذلك ما ورد فيه من قول الكاتب (قال أبو محمد) وذلك فى أكثر من موضع فى الكتاب [٢] ، وليس ذلك بالمؤكد لأنه لم يرد اسم فى أوله أو آخره دال على أنه من إملاءه لفلان أو نحو ذلك ، فربما يكون قد عبر بذلك عن نفسه وهذا إحتمال وارد .

أما عن كونه قد كتبه أو شارك فى كتابته فإن بعض النصوص قد وردت بروايته مباشرة وذلك مثل قوله عند الكلام على « نجد وتهامة والحجاز » بعد ذكر هذا العنوان مباشرة « حدثنا الرياشى عن الأصمعى قال : إذا خلفت الحجاز مصعدا فقد انجدت ... » [٣] .

وأما عن مصادر ابن قتيبة رحمه الله تعالى فى الكتاب فنوردها فيما يلى مع ذكر الأمثلة الدالة على ذلك :

---

(١) راجع مقدمة كتاب (المعارف) لابن قتيبة الدينورى ص٢-٥ بتصرف .
(٢) انظر كتاب المعارف ص٦ وما بعدها .
(٣) انظر المصدر السابق ص٢٤٧ بتصرف .

أولا : أن ابن قتيبة قد نقل كثيرا من الأخبار عن التوراة وبعض الأخبار عن الإنجيل خاصة فيما يتعلق بمبدأ الخلق وذكر آدم وأولاده حتى ص ٢٧ مثال ذلك :

« قرأت فى أول سفر من أسفار التوراة أن أول ما خلق الله تعالى السموات والأرض ، وكانت الأرض خربة خاوية ، وكانت الظلمة على الغمرة [١] وكانت ريح الله تبارك وتعالى ترف على وجه الماء ، فقال الله عز وجل : ليكن النور ، فكان نورا فرآه الله حسنا فميزه من الظلمة وسماه نهارا ، وسمى الظلمة ليلا فكان مساء وكان اصباح يوم الأحد ...) [٢] وينتهى هذا النقل عن التوراة فى كثير من المواضع فى الصفحات الأولى من الكتاب حتى ص ٢٦ .

ومثال ما نقله عن الإنجيل ما جاء فى بيان بعض التواريخ قال :

« ويذكر أن الإسكندر قبل المسيح والخبر فى الانجيل عن جالية بابل أنها كانت بعد داود بأربعة عشر قرناً وقبل المسيح بأربعة عشر قرناً » .[٣]

ثانيا : لقد أخذ ابن قتيبة رحمه الله تعالى كثيرا من مرويات وهب بن منبه[٤] وذلك فى معظم كتابه دون أن يذكر اسناد بينهما بل إنه يذكر ما يسنده إليه بقوله : (قال وهب) أو يقول بعد ذكر الخبر (هكذا قال وهب) [٥] ومما يظهر اعتماده عليه كثيرا قوله فى (قصة ذى الكفل عليه السلام) وأما ذو الكفل فلم أجد فيما نقله وهب ذكرا) [٦] .

---

(١) الغمرة : الماء الكثير .
(٢) كتاب المعارف ص٦ .
(٣) المعارف ص٢٧ .
(٤) وهب بن منبه وهو ابن كامل بن سيج بن ذى كناز اليمانى الصنعانى أبو عبد الله الأنباوى أخرج له البخارى ومسلم وأبو داود والترمذى والنسائى وغيرهم قال ابن معين ثقة . تهذيب التهذيب جـ١١ ص / تقريب التهذيب جـ٢ ص٣٣٥ .
(٥) كتاب المعارف ص١٥ وما بعدها .
(٦) السابق ص٢٥ .

وأحيانا يذكر اسناد وهب فيقول رحمه الله تعالى عند ذكر (عدد الأنبياء والرسل منهم صلى الله عليهم) ، وذكر وهب عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : أول المرسلين آدم وآخرهم محمد صلى الله عليهما وكانت الأنبياء مائة ألف وأربعة وعشرين ألف نبى ... ، [١] .

ونجده يذكر أخبار وهب عقب ذكره لما نقله عن أهل الكتاب ، وعلى جهة المثال :

(وقال أبو محمد) وقرأت فى التوراة أن آدم عليه السلام جامع امرأته حواء فولدت له قابيل فقالت : استفدت لله رجلا ، ثم ولدت هابيل ، ولم يتقبل من قابيل فقتل أخاه هابيل .

(وقال وهب) إن آدم كان يولد له من كل بطن ذكر وأنثى وكان الرجل منهم أى أخواته شاء إلا توأمته ، فأبى قابيل أن يزوج أخته التى هى توأمته هابيل فقال : أنا أحق بها فغضب آدم عليه السلام وقال : اذهبا فتحاكما إلى الله تعالى بالقربان فأيكما قبل قربانه فهو أحق بها فقربا القربان بمنى فمن ثم صار مزبح الدلس إلى اليوم ، فنزلت نار فقبلت قربان هابيل فقتل قابيل هابيل ورضخ رأسه بحجر واحتمل أخته حتى أتى واديا من أودية اليمن فى شرقى عدن فكمن فيه ... الخ .[٢]

وهذا الأسلوب غالبا ما يقع فى القسم الأول وهو ما تناول فيه مبدأ الخلق وآدم والأنبياء السابقين على سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم .

---

(١) السابق ص٢٦ .
(٢) السابق ص٩ .

ثالثا : ينقل ابن قتيبة أيضا فى كتابه عن ابن اسحاق [١] ، فنقل عنه فى غزوة أحد وأخبار أبى بكر الصديق رضى الله عنه ، وغيرهما .[٢]

رابعا : وقد روى ابن قتيبة رحمه الله تعالى فى كتابه المعارف بسنده الموقوفات وذلك مثل ما رواه بقوله (حدثنى زيد بن أخزم قال حدثنى يحيى بن كثير قال حدثنا عثمان بن سعد الكاتب عن الحسن عن عتّى [٣] عن أبى : أن آدم لما احتضر اشتهى قطفا من قطف الجنة فانطلق بنوه ليطلبونه له فلقيتهم الملائكة ، فقالوا : أين تريدون يا بنى آدم قالوا : إن أبانا اشتهى قطفا من قطف الجنة ، فقالوا : ارجعوا فقد كفيتموه ، فانتهوا إليه فقبضوا روحه وغسلوه وحفظوه وكفنوه وصلى عليه جبريل والملائكة صلى الله عليه وسلم خلفه وبنوه خلف الملائكة ودفنوه وقالوا : هذه سنتكم فى موتاكم يا بنى آدم .[٤]

- وتارة يذكرها بلا إسناد كما روى فى ترجمة الحارث بن هشام بقوله : وقالت عائشة رضى الله عنها : لأن أكون قعت فى منزلى عن مسيرى إلى البصرة أحب إلىّ من أن يكون لى من رسول الله صلى الله عليه وسلم عشرة أولاد كلهم مثل عبد الرحمن بن الحارث وكان شهد معها الجمل وكان شريفا سخيا ...) [٥] .

خامسا : ما رواه بسنده مرفوعا إلى النبى صلى الله عليه وسلم ، وذلك نحو ما رواه فى ترجمة عمار بن ياسر قال : حدثنى الزيادى قال حدثنا عبد الوارث بن سعيد قال حدثنا زمعة بن كلثوم بن جبير قال حدثنى أبى قال حدثنى أبو العامرية

---

(١) ابن اسحاق هو محمد بن اسحاق بن يسار المطلبى إمام المغازى ت (١٥٠) صدوق يدلس ، التقريب جـ٢ ص١٤٤ .
(٢) راجع على جهة المثال ص٦٩ ، ٧٣ من كتاب (المعارف) .
(٣) عتى بن ضمرة التيمى ثقة التقريب جـ٢ ص٥ .
(٤) انظر ، المعارف ، ص٩ وأيضا ص١٠ ، ١٧ ، ١٩٤ ، ١٩٥ ، ١٢١ .
(٥) انظر المرجع السابق ص١٢٢ .

قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : ألا لا ترجعوا بعدى كفارا يضرب بعضكم رقاب بعض ...) [١] الحديث .

وهذا اسناد رواه بالتحديث بالإسناد المتصل إلى النبى صلى الله عليه وسلم مستعملا فيه صيغة (حدثنى) و(حدثنا) مما يبين دقته فى الرواية .

سادسا : يذكر ابن قتيبة رحمه الله تعالى فى كتابه « المعارف » أيضا أخبارا معلقة بلفظ (روى) وذلك نحو ما أورده فى ترجمة (خالد بن سنان بن غيث) بقوله (روى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ذاك نبى أضاعه قومه) [٢] .

- وما رواه أيضا بلفظ (قال) كما ورد فى ترجمة (أبو بكرة رضى الله عنه) نفيع بن الحارث بن كلدة قال : فلما حاصر رسول الله صلى الله عليه وسلم أهل الطائف قال : أيما عبد نزل إلىّ فهو حر فنزل أبو بكرة ...) [٣] .

- وما رواه أيضا حكاية نحو قوله فى ترجمة (مكنف بن زيد الخيل الطائى) : (فأما زيد الخيل فإنه أتى إلى النبى صلى الله عليه وسلم وسماه زيد الخير..)[٤] .

سابعا : وقد نقل ابن قتيبة رحمه الله تعالى أيضا عن الواقدى وذلك مثل ما نقله فى (أخبار عثمان بن عفان رضى الله عنه) قوله (قال الواقدى كان عثمان رضى الله عنه رجلا ليس بالقصير ولا بالطويل بل حسن الوجه رقيق البشرة ...)[٥] وأيضا نحو ما نقله فى (أخبار عبد الرحمن بن عوف رضى الله عنه) [٦] وكذا ما ورد فى ترجمة (أبى هريرة رضى الله عنه) [٧] .

(١) انظر كتاب (المعارف) ص١١٢ / وأخرجه أحمد جـ٢ ص١٠٤ عن ابن عمر .
(٢) المعارف ص٢٩ .
(٣) المعارف ص١٢٥ وانظر ص١٢٣ أيضا .
(٤) السابق ص١٤٥ .
(٥) السابق ص٨٢ .
(٦) السابق ص١٠٤ .
(٧) السابق ص١٢٠ .

ثامنا : أورد كثيرا من الأنساب والتراجم مسندة وذلك عند اقتراب طبقات الرجال إليه وذلك نحو ما أورده فى ترجمة (أبو بصير) حيث قال : قال أبو اليقظان هو يشكر بن وائل من بنى يشكر ...) [١] .

ونحو ما أورده فى ترجمة (أبو العالية) حيث قال : أخبرنى أبو عبد الله البجلى أن أبا العالية كان مولى لبنى رياح ومات أبو العالية سنة تسعين ...)[٢] وكذا ما أورده فى ترجمة عكرمة مولى ابن عباس [٣] وغيرهم .

تاسعا : التنبيه على حال الراوى من حيث الجرح والتعديل فى بعض التراجم خاصة من كان من طبقة التابعين وأتباعهم واهتمامه بذكر تواريخ وفياتهم. ومن أمثلة اهتمامه بالجرح والتعديل ما ذكره فى ترجمة (محمد بن اسحاق) من قوله (وحدثنا أبو حاتم عن الأصمعى عن المعتمر قال : قال أبى : لا تأخذن من ابن اسحاق شيئا فإنه كذاب) [٤] .

وأيضا قوله (حدثنى) اسحاق بن إبراهيم بن حبيب بن الشهيد عن عمرو بن النضر قال : مررت بعمرو بن عبيد فذكر شيئا من القدر ، فقلت هكذا يقول أصحابنا فقال : ومن أصحابك ؟ قلت أيوب وابن عون ويونس والتيمى فقال : أولئك أرجاس أنجاس أموات غير أحياء ...) [٥] .

وانظر الاهتمام بتواريخ مولد الرواة ووفاتهم وخاصة عند ذكر التابعين ومن بعدهم وأصحاب الرأى وأصحاب الحديث وذلك ما بين الصفحات ١٨٦ إلى ٢٣٠) وما قبل هذه الصفحات وما بعدها .

---

(١) السابق ص٢٠٠ .
(٢) المرجع السابق ص٢٠٠ .
(٣) المرجع السابق ص٢٠١ .
(٤) المعارف ص٢١٥ .
(٥) السابق ص٢١٢ .

وهذا دلالة على استحضاره لقواعد المحدثين ومدى اهتمامهم بتواريخ الوفاة نظرا لأثرها فى عملية التحمل والأداء واتصال الإسناد ، وذلك فضلا عما أشرنا إليه سابقا من دلالته على حال الرواى وأحيانا كما هو مذكور ، يثبته بإسناده . إنه جهد واضح مشكور .

عاشرا: ويلاحظ أن ابن قتيبة رحمه الله تعالى يذكر فى (الأوائل) [١] وفى هذا الباب يروى أخبارا بسنده عن زيد بن أخزم ، وسهل بن محمد بلفظ التحديث المفرد والجمع (حدثنى ، حدثنا) .

وينقل عن أبى اليقظان ، ووهب بن منبه بلفظ (قال) . كما ينقل أخبارا بحذف الإسناد كاملا بلفظ (قالوا) [٢] .

وهذا يدل على العناية بالمحافظة على صيغ الأداء ، والتعبير عنها بما يدل على طريقته للتحمل والأخذ .

حادى عشر : ينقل ابن قتيبة رحمه الله تعالى عن الأصمعى أخبارا تارة عن أبى حاتم عن الأصمعى وتارة عن الرياشى عن الأصمعى وتارة أخرى عن الأصمعى مباشرة وذلك نحو ما أورده فى (نكر المساجد) [٣] وفى ذكر (نجد وتهامة والحجاز) [٤] وغيرها وما رواه مباشرة عن الأصمعى نحو ما ذكره فى أخبار (جزيرة العرب) [٥] .

وهذا الإسناد رجاله ثقات :

أولا : أبو حاتم السجستانى : محمد بن إدريس التميمى الحنظلى شيخ

---

(١) الأوائل : وهم أول من سبق لهم فعل شيئا ما ، أو إحداث أمر من الأمور .
(٢) راجع المعارف ص٢٤٠ ، ٢٤١ .
(٣) المعارف ص٢٤٤ .
(٤) المعارف ص٢٤٦ ، ٢٤٧ .
(٥) المرجع السابق ص٢٤٧ .

ابن قتيبة رحمه الله تعالى : كان من بحور العلم طوف البلاد ، وبرع فى المتن والإسناد وثقه النسائى وغيره ت (٢٧٧) [١] .

ثانيا : الرياشى : عباس بن الفرج الرياش أبو الفضل البصرى صاحب النحو والعربية ، روى عن عبد الملك بن قريب الأصمعى وآخرون ، وروى عنه عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينورى وغيره .

ذكره ابن حبان فى الثقات وقال : كان راويا للأصمعى ، وقال أبو بكر الخطيب : قدم بغداد وحدث بها وكان ثقة ت (٢٥٧هـ) [٢] .

ثالثا : الأصمعى : عبد الملك بن قريب بن عبد الملك أبو سعيد الأصمعى قال يحيى بن معين ثقة أخرج له البخارى وأبو داود والترمذى وغيرهم سئل أبو داود عن الأصمعى فقال : صدوق ، وقال إبراهيم الحربى : كان أهل البصرة أهل العربية منهم أصحاب الأهواء إلا أربعة فإنهم كانوا أصحاب سنة فذكر منهم الأصمعى ت(٢١٣ وقيل ٢١٦ ، وقيل ٢١٧)هـ .[٣]

وعند النظر إلى هذه الأحوال يظهر أن ابن قتيبة الدينورى يعمل بقاعدة المحدثين (من أسند لك فقد أحالك ومن حذف فقد تكفل لك) .

✪ ✪ ✪

(١) انظر : (سير أعلام النبلاء) جـ١٣ ص٢٤٧ باختصار .
(٢) تهذيب الكمال فى أسماء الرجال جـ١٤ ص٢٣٤ .
(٣) المرجع السابق جـ١٨ ص٣٨٣ .

﴿١٢٠﴾

الخاتمة

جهد جليل النفع ، عظيم القدر ، ذلك الذى قام به العلماء المتقدمون ، الذى طالما نَهِل من منهله الناهلون ، وورد من مورده العذب الواردون ، فلا ريب أن فى إحياء جهودهم ، وتناولها من حين لآخر بالبحث والدراسة كشف عن كنوز من المعرفة فى حنايا سيرتهم العطرة ذات المعدن النقى ، والجوهر الصافى .

وأيضا ما يحتاج إليه طالب العلم من القدوة الصالحة – بعد كتاب الله تعالى وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم – يتلمس طريقه – قولا وعملا – لفهم شرع الله تعالى ودينه .

والإمام ابن قتيبة الدنيورى – كما علمنا سلفا – عالم الحديث والتفسير والفقه والأدب واللغة واحد من أبرز العلماء المتقدمين الذين اتسموا بالدأب والصبر والمجاهدة فى سبيل تحصيل العلوم والمعارف ، واعتكافه بعدٌ على التدوين والتصنيف ، مما يحفز الأجيال على اقتفاء أثره ، إنطلاقا مما تركه من ميراث النبوة ، فيضاعف علمهم ونتاجهم العلمى رفعة لشأن الأمة الإسلامية فى كل زمان وعصر . روى ابن تيمية عن أهل المغرب أنهم كانوا يقولون : « كل بيت ليس فيه شئ من تصنيفه لا خير فيه ... »[1] .

والإمام ابن قتيبة – كما علمنا سلفا – يبين أهداف كل مؤلف يضعه لتفهم وجهته ويحسن الإفادة منه ، نجده فى كتاب (عيون الأخبار) يقدم بكلمات غاية فى الروعة ، وعظيم المقصد فيقول فى المقدمة عن هذا الكتاب : « دالٌ على معالى الأمور ، مرشد لكريم الأخلاق ، زاجر عن الدناءة ، ناهٍ عن القبيح ، باعث على صواب التدبير ، وحسن التقرير ، ورفق السياسة ، وعمارة الأرض » .

(١) مقدمة كتاب(ابن قتيبة) ص١ أ. د/ محمد زغلول سلام . ط دار المعارف (نوابغ الفكر العربى) .

فأى مطلب للشريعة الغراء يخرج عن هذا القول البديع المفسر لقول الرسول صلى الله عليه وسلم (إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق) [١] .

ومن هذا القول البديع أيضا تظهر قيمة جهود ابن قتيبة ، وضرورة الحفاظ عليها ، واستخراج نتاج أفكاره منها ، لاسيما ما يتطق بالحديث النبوى الشريف ، فهى تمثل صورة من أرقى صور الفكر الإسلامى فى القرن الثالث الهجرى .

هذا : ومن خلال العرض السابق لبعض مصنفات الإمام الجليل ابن قتيبة نجد فيها ضرورة لإطلاع الباحثين فى الحديث النبوى الشريف لطريقة تناوله إزالة التناقض بين ما ظاهره ذلك ، وما يستخدم من الأدوات كالآيات القرآنية ، والأحاديث النبوية ، والمعانى اللغوية والاستشهاد بأشعار العرب فالشعر ديوانها ، وما من عبارة فيها خفاء إلا أورد نظائر وأمثال من مأثورات القول عند البلغاء والفصحاء المشهود لهم بالتمكن فى صناعتهم ، مما يجعل جهودهم مرحلة متقدمة من الدراسات تعتمد على النص والذوق اللغوى .

والله سبحانه وتعالى أعلى وأعلم ، والحمد لله وأستغفر الله العظيم .

وإن أصبت فهذا منتهى أملى ∴ وإن كبوت فتلكم سنة البشر

وصل الله وسلم وبارك على سيدنا ومولانا محمد وعلى آله وصحبه وعلينا اللهم آمين .

دكتـــــور
عبد الله عبد العليم أبو العيون
الأستاذ المساعد بقسم الحديث وعلومه

(١) أخرجه أحمد جـ٢ ص٢٨١ عن أبى هريرة .

﴿١٢٢﴾

فهرس المصادر والمراجع

١ – القرآن الكريم .

٢ – اختصار علوم الحديث لابن كثير ط محمد على صبيح القاهرة .

٣ – الأنواء لابن قتيبة الدينورى ط حيدر أباد – الهند ١٩٥٦م .

٤ – الأعلام للزركلى ط دار العلم للملايين بيروت – لبنان .

٥ – البداية والنهاية لابن كثير . ط مكتبة المعارف ١٤٠٤-١٩٨١ .

٦ – تاريخ بغداد للخطيب البغدادى . ط دار الكتب العلمية بيروت – لبنان .

٧ – تأويل مختلف الحديث لابن قتيبة . ط دار الكتب العلمية بيروت لبنان .

٨ – تذكرة الحفاظ للذهبى . ط دار الكتب العلمية .

٩ – تدريب الراوى للسيوطى . ط المكتبة العلمية – المدينة المنورة ١٩٧٢ .

١٠ – تقريب التهذيب للحافظ ابن حجر .

١١ – تهذيب التهذيب للحافظ ابن حجر . ط دار المعارف النظامية – الهند .

١٢ – توجيه النظر إلى أصول علم الأثر للجزائرى . ط دار المعرفة بيروت لبنان .

١٣ – دفاع عن السنة . أ. د/ محمد محمد أبو شهبة . ط مكتبة السنة .

١٤ – سنن أبى داود . ط دار احياء السنة النبوية .

١٥ – سنن الترمذى . ط دار الفكر – بيروت .

١٦ – سنن النسائى . ط دار الفكر – بيروت .

١٧ – سير أعلام النبلاء للذهبى . ط دار المعارف القاهرة .

١٨ – صحيح البخارى . ط مصطفى البابى الحلبى ١٣٧٨/١٩٥٩ .

١٩ – صحيح مسلم . ط دار إحياء التراث العربى بيروت ١٣٤٧/١٩٢٩ .

٢٠ – الطبقات الكبرى لابن سعد . ط دار صادر بيروت .

٢١ – عقيدة السلف الصالح د. محمد عادل الحسيلى . ط دار الفقه للنشر والتوزيع القاهرة ١٩٩٩م .

٢٢ – غريب الحديث لابن قتيبة . ط دار الكتب العلمية – بيروت – لبنان .

٢٣ – الفهرست لابن النديم .

٢٤ – قواعد التحديث للقاسمى . ط عيسى البابى الحلبى – مصر .

٢٥ – الكفاية فى علم الرواية للخطيب البغدادى . ط دار مكتبة الهلال بيروت .

٢٦ – مختصر عيون الأخبار لابن قتيبة . ط وزارة الثقافة والإرشاد القومى .

٢٧ – مسند الإمام أحمد . ط دار صادر – بيروت .

٢٨ – مقدمة مشكل الحديث لابن قتيبة .

٢٩ – مقدمة ابن الصلاح . ط مطبعة العاصمة القاهرة .

٣٠ – المعارف لابن قتيبة . ط دار إحياء التراث العربى – بيروت ١٩٧٠م .

٣١ – مختار الصحاح .

٣٢ – المعجم الوسيط . ط احياء التراث العربى – بيروت – لبنان .

٣٣ – موطأ مالك . ط عيسى البابى الحلبى / القاهرة ١٣٧٠ .

٣٤ – مجلة منار الإسلام .

٣٥ – نزهة الألباب فى الألقاب . لأحمد بن على بن حجر الشافعى .

٣٦ – وفيات الأعيان لابن خلكان . ط دار صادر بيروت .

٣٧ – ابن قتيبة . د. محمد زغلول (من نوابغ الفكر) ط دار المعارف .